نظريّة دارون
مرتكز الإلحاد الجديد

عبد الله زيعور *

تقديم

ظهرت نظريّة التّطوّر في منتصف القرن التّاسع عشر، في أجواء طغيان الحقبة المادِّيّة التي كانت مسيطرة على أوروبّا نتيجة صِدَام الكنيسة مع بيئة العِلم والعلماء منذ القرن السّادس عشر. وقد كَثُرَ اللَّغط حول النّظريّة، وانقسم النّاس بين مؤيِّد ومعارِض لها، وكلٌّ قدَّم أدلَّته.

كانت النّظريّة مِنَ النّظريّات القليلة في علم الأحياء (البيولوجيا) التي حَظِيَت بالسّمعة والشّهرة والجدل حولها، وكانت في الوقت نفسه من أكثر ما رُفض من نظريّات بين أهل الاختصاص. والمثير فيها، أنَّها كانت تنهض وتخبو في أروقة العِلم والعلماء صعودًا وهبوطًا، ولا سيَّما في بدايات القرن العشرين، إذ تلقَّت انتكاسات متوالية آنذاك. وبغضِّ النّظر عن ما جاء فيها من فرضيّات، فقد دفعت الدّارونيّة الجميع للبحث والإجابة عن مضامينها، وألزمتهم بتحديد الموقف منها.

---

* أستاذ فيزياء الطاقة في كليّة العلوم في الجامعة اللبنانيّة - لبنان.

لقد سمعنا عن نسخ متطوّرة منها؛ مثل الدّارونيّة الكونيّة والفيزيائيّة والاجتماعيّة، واستُخدم مضمونها في تسويغ التّيّارات العرقيّة الإقصائيّة والبقاء للأقوى وما شابه. وكان الاستثمار السّياسيّ والعقائديّ، وحتّى النّفسيّ، في قراءة النّظريّة واضحًا، وقد استفادت الرّأسماليّة تحديدًا مِن طروحاتها لمزيد من تسويغ شرعيّة تفوُّق العرق الأبيض وحقّه في نهبِ ثروات الشّعوب المستضعفة.

ويحقّ للقارئ أن يتساءل عن سبب مبادرتنا لإعادة تقييم نظريّة أوَّل ما ظهرت منذ أكثر من مئة وخمسين عامًا، ورقدت نائمة بين رفوف المكتبات العلميّة، ورافقها لغطٌ كبير في الماضي واليوم. وواقع الأمر أنّنا نخوض في الدّارونيّة من جديد؛ لأنَّ «الملاحِدة الجدد» في أميركا وأوروبّا استندوا إلى مقولاتها، وعدّوها المرتكز العلميّ لإلحادهم الجديد.

فقد أعلن الملحدون الجدد - وهم تيّار إلحاديّ ظهرت إرهاصاته بعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001م، وتشكّل بإعلان أركانه الأربعة المؤسّسين: «سام هاريس» (Sam Harris)، «ريتشارد دوكينز» (Richard Dawkins)، «دانييل دينيت» (Daniel Dennett) و«كريستوفر هيتشنز» (Christopher Eric Hitchens)، وتوسَّع عبر مشاركة عدد من الكُتَّاب والإعلاميّين في أميركا وأوروبّا - أنَّ الخلفيّة العلميّة لإلحادهم تنطلق من أنَّ سبب وجود الكون، ولا سيَّما الحياة فيه من إنسان وحيوان ونبات، تحديدًا الصّدفة والطّفرات والعشوائيّة، معزّزة بمقولات تنطق بها نظريّة دارون ونظريّة الأكوان الموازيَة لـ«ستيفن هوكينغ» (Stephen Hawking). وقد استند أصحاب هذا التّيّار إلى نتائج النّظريَّتين للحصول على الحجَّة العلميّة، والمرتكز العلميّ الذي يحسم النّقاش ويُنهي المحاججة من دون حاجة إلى المزيد مِنَ الجدال، وإيصال رسالة للآخرين مفادها أنَّ منطقهم ليس إلّا «منطق العلم ونتائجه».

استنادًا إلى ما تقدَّم، باتَ نسفُ دعاوى نظريّة التّطوّر الدّارونيّ نسفًا للأساس العلميّ الأوّل للإلحاد الجديد، وهكذا كانت نقطة البداية في مشوارنا مع الدّارونيّة وتحديد الموقف منها. وفي السّطور القادمة، سنعرض مضمون النظريّة وعثراتها العلميّة، وكيفيّة تقويلها ما لم تَقُلْ، والاستثمار بها، خصوصًا من قِبَل أهل «الإلحاد الجديد».

ماهيّة الدّارونيّة أو نظريّة التّطوّر

صاحب نظريّة التّطوّر «تشارلز روبرت دارون» (1809ـ1882م) (Charles Robert Darwin)، هو عالم طبيعيّ إنجليزيّ وضع نظريّته في كتاب سمّاه «أصل الأنواع» سنة 1859م. ومن أعماله أيضًا: «أصل الإنسان والانتخاب بالنّسبة إلى الجنس» سنة 1871م، و«تنوّع النّباتات والحيوانات تحت الاستئناس» سنة 1867م.

تنصّ هذه النّظريّة على أنَّ الكائنات الحيَّة تتغيَّر مع مرور الزّمن نتيجة لِتغيّرات في السِّمات الجسميّة أو السّلوكيّات الوراثيّة، ما يُتيح للكائن الحيّ التّكيُّف مع بيئته بصورة أفضل ويساعده على البقاء والتّكاثر.

وتوضيحًا، تتعلَّق النّظريّة بوجود نشوء وتطوّر للكائنات، عبر انتقاء طبيعيّ وطفرات جينيّة وقوَّة تطوّريّة، تتمثَّل في الانحراف الوراثيّ أو التّغيُّر العشوائيّ للجينات، وتكون الطّفرات عبر تغييرات في تسلسل الحمض الرّيبوزيّ النّوويّ المنزوع الأوكسجين أو الحمض النّوويّ الصّبغيّ (DNA) أو في الكروموزمات التي تحمله، وبذلك يَحدث تغييرٌ في المعلومات الوراثيّة الحيويّة المشفَّرة التي يحملها، وهذا سيُغيّر النّوع تغييرًا تامًّا بعد سلسلة طويلة تطوّر فيها أحاديّ الخليّة إلى ثدييّ، فقرد، فإنسان. وبذلك، قامت نظريّة دارون على أنَّ «كلّ الكائنات الحيَّة ـ على مرِّ الزّمان ـ تنحدر من أسلاف مشتركة»[1].

في كتابه «أصل الأنواع»، يؤكِّد «دارون»، حسب نظريّته، أنَّ الطّفرات المفيدة المسؤولة عن التّغيّرات الدّائمة في الأحياء هي طفرات طفيفة ونادرة، وتحصل على فترات زمنيّة متباعدة، وأنَّ تطوّر الكائنات الحيَّة يحصل بتراكم هذه الطّفرات عبر فترات زمنيّة طويلة تمتدّ لملايين السّنين. وأمَّا الطّفرات المفاجئة والكبيرة، فغالبًا تؤدِّي إلى التّشوُّه أو الموت؛ أي أنَّ تشكّل كائن حيّ معقَّد بكامل الأعضاء والوظائف يحتاج إلى دهور سحيقة وتراكم عدد هائل من الطّفرات الطّفيفة.

للتَّطور، وفاق نظريّة دارون، آليَّات رئيسة، هي:

- آليَّة الانتقاء الطّبيعيّ التي تفترض نجاح المخلوقات الذين يمتلكون صفات مميَّزة في البقاء، وتمرير هذه الصّفات إلى الأجيال التّالية.

1- مازن الشّريف، الإلحاد بين الحقيقة والوهم من دارون إلى هوكينغ، https://www.mazencherif.com.

- آليَّة الطّفرات الوراثيّة في الجينات التي تؤدِّي إلى التّأثير على تمرير الصّفات الوراثيّة عبر الأجيال.
- آليَّة الانحراف الجينيّ، وهي تغيّرات عشوائيّة تحدث في الصّفات التي تحملها المجموعة.
- آليَّة الهجرة الجينيّة، وذلك عند تزاوج الأفراد من مجموعات مختلفة في ما بينها .

يَفترض العالِم «دارون»، كذلك، امتلاك بعض المخلوقات ضمن أيّ مجتمع في السّابق للصّفات التي تساعدهم على العيش والتّكاثر، وقد تركوا وراءهم عددًا أكبر من الأبناء مقارنة مع نظرائهم، ما أدَّى تاليًا إلى شيوع هذه الصّفات في الجيل التّالي بشكل أكبر. ومع مرور الوقت، وانتقال الصّفات المرغوبة بهذه الطّريقة من جيل إلى آخر، أصبح المجتمع بأكمله أكثر تكيّفًا مع محيطه، وأكثر قدرة للعيش والتّكاثر فيه[1].

تأسَّست نظريّة دارون على تطوّر أفضى إلى تعدُّدِ النَّوع، وإلى أصلٍ مشتركٍ، وإلى كائنٍ كان في البداية خليَّة أحاديَّة، وتكيّفٍ جعل السَّمَك في الأعماقِ أَعْمَى، ثُمَّ طوَّر العينين حين اقترب مِن سطح الماء، والثّدييّ الأوّل البحريّ الذي تطوَّر ليكون برمائيًّا ثُمَّ برِّيًّا، ثُمَّ كان مِنَ التّطوّر أنِ اضُطرَّت الزّرافة إلى مدِّ عنقها وإطالته لعلوِّ الأشجار، في حين وجد الجاموس إلى جانبه العشب فحَنَى له عنقه، ثُمَّ كان الانتقاء عشوائيًّا تارةً، وبقهر الاصطفاء والانتقاء طورًا، وصولًا إلى عالَم القرد الذي تحوَّل إلى إنسان.

تدور نظريّة دارون، أيضًا، لتصل إلى حقيقةٍ ـ في اعتقاده واعتقاد وأتباعه ـ أنَّ الخَلق لا يحتاج إلى خالقٍ؛ لأنَّ ذلك كلّه ناجم عن مجرَّد التّطوّر من أحاديّ الخليَّة والبكتيريا التي مرض بها كوكب الأرض بعد نيازك وبراكين وتشكّل للماء الأوَّل، إلى هذا الإنسان الذي يبني حضارته وعلومه، بوصفه نسخة نهائيَّة، من دون تحديد كيفيّة انتهاء حلقات التّطوّر وزمانها، والتي من المفروض ـ وفاق القوانين نفسها ـ أن تستمرّ إلى الآن ومستقبلًا[2].

1- تمام طعمة، نظريّة التّطوّر، موقع «موضوع» العلميّ، 2023/6/26م.

2- برايان وديبورا تارلزوورث، ملخّص كتاب التّطوّر، https://engzketab.com.

ماهيّة الانتخاب الطّبيعيّ أو النّشوء والارتقاء

تقوم عوامل الفناء بإهلاك الكائنات الضّعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القويّة، وذلك يُسمَّى بقانون «البقاء للأصلح»؛ فيبقى الكائن القويّ السّليم الذي يورّث صفاته القويّة لذرِّيَّته، وتتجمَّع الصّفات القويّة مع مرور الزّمن مكوّنة صفة جديدة في الكائن، وذلك هو «النّشوء» الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصّفات النّاشئة إلى كائنٍ أعلى، وهكذا يستمر التّطوّر، وذلك هو «الارتقاء»، فالنّشوء والارتقاء هما الانتخاب الطّبيعيّ.

أمّا في ما يختصّ بالإنسان، فتفترض نظريّة التّطوّر أنَّ الإنسان مرَّ عبر الزّمن الطّويل الذي تُقدّره الأدلَّة العلميّة بنحو ستَّة ملايين سنة بعمليّة طويلة ضمَّت سلسلة كبيرة مِنَ التّغيُّرات، وأنَّ أصله مِنَ الأسلاف الشّبيهين بالقرود، ويستدلّون على ذلك بأنَّ الأدلَّة تؤيّد أنَّ الصّفات السّلوكيّة والمادّيّة بين البشر مشتركة مع أسلافهم الشّبيهين بالقرود.

الأدلَّة الدّاعمة لنظريّة التّطوّر

إنَّ الأدلَّة التي قد تَدعَم نظريّة التّطوّر، هي:

1. الأحافير:

إذ يمكن من خلال الأحافير معرفة الشّكل الذي كانت عليه الحياة في السّابق، فهي تُظهر تطوّر الكائنات عبر الأزمنة المختلفة، وتُعطي أدلَّة كافية قد تدعم صحَّة نظريّة أنَّ الكائنات الحيَّة المُعقَّدة في الوقت الحاليّ قد انحدرت من كائنات أخرى أكثر بساطة منها في السّابق.

إنَّ تماثل التّركيب بين الكائنات المختلفة يدلّ على انحدار كلّ مجموعة مِنَ الأنواع من سَلَفٍ مشترك. ومن الأمثلة على ذلك تشابه أذرع الإنسان مع الأطراف الأماميّة للقطط والكلاب، وأجنحة الطّيور، وزعانف الحيتان وامتلاكها للنّوع نفسه مِنَ العظام. فضلًا عن تشابه أجنَّة النّوع الواحد مِنَ الكائنات الحيَّة، وهو الأمر الذي قد يُعدّ دليلًا على تشاركها مع السَّلَف.

2. الأعضاء الضّامرة:

قد يدلّ وجود بعض الأعضاء؛ مثل عظم الذّيل أو العصعص، والزّائدة الدّوديّة

عنـد الإنسـان على صحَّـة نظريّـة التّطـوّر، إذ أدّى التّطـوّر إلـى تقليـل حجمهـا بسـبب انعـدام الحاجـة إليهـا فـي الوقـت الحاليّ.

3. توزيع الكائنات على سطح الأرض:

لقـد فسّـر «دارون» ظهـور أنـواع جديـدة مـن الكائنـات الحيَّـة اعتمـادًا على العوامـل الجغرافيّـة والجيولوجيّـة أيضًـا بقولـه: إنَّ سلاسـل جبليّـة مرتفعـة أو بحـورًا مائيَّـة واسـعة، وعوامـل جيولوجيّـة أخـرى، مثـل الحركـة أو زحزحـة قـارَّات، بإمكانهـا إحـداث انقسـام وفصـل مجموعـة حيَّـة معيَّنـة إلى مجموعتَيـن اثنتَيـن منفردتَيـن، لا تواصـل أو احتـكاك بينهمـا، الأمـر الـذي أدَّى ـ مـع مـرور الزّمـن ـ إلـى إكسـاب كلّ مجموعـة مـن هاتَيـن المجموعتَيـن صفـات وراثيّـة مختلفـة جـدًّا؛ لدرجـة تكويـن نوعَيـن تنعـدم بينهمـا إمكانيّـة التّـزاوج المثمـر، وذلـك نتيجـة حـدوث طفـرات وراثيّـة، وضغـوط تكيُّـف مـع البيئـة الجديـدة وآليّـات الانتخـاب الطّبيعيّ.

اعتراضات على النّظريّة

ابتـداءً نعـرض بعـض المعطيـات العلميّـة التـي قـد تكـون مفيـدة لفهـم إشـكاليَّة التّطـوّر:

- «عمر الأرض»: 4,6 مليارات سنة.
- «عمر الكائنات المجهريّة» في السّجلاتِ الحفريّة الأولى: 3,5 مليارات سنة.
- «أقدم الحفريّات الحيوانيّة»: 700 مليون سنة.
- «عمر الفقاريّات الأولى»: 400 مليون سنة.
- «عمر الثّدييّات الأولى»: 200 مليون سنة.
- «عمر الإنسان الماهر»: 1,8 مليون سنة.
- «عمر الإنسان المنتصب»: 500 ألف – مليون سنة.
- «عمر الإنسان العاقل»: 25 ألف سنة.

1. الفَرْق بين القانون والنّظريّة:

لقـد ظهـرت الاعتراضـات على نظريّـة التّطـوّر منـذ إعلانهـا خـلال القـرن التّاسـع عشـر، وكانـت قائمـة على أُسـس علميّـة وسياسـيّة ودينيّـة. واسـتمرَّ ذلـك خـلال القـرن العشـرين، وعلـى الأخـصّ فـي الرّبـع الأخيـر منـه وحتَّـى الآن. يقـود الانتقـادات دُعـاة التّصميـم الذّكـيّ للكـون القائليـن إنّ بعـض الميـزات فـي الكـون عمومًـا، وفـي الكائنات

الحيَّة خصوصًا، من ورائها مصمِّم ذكيّ، وكذلك بعض علماء البيولوجيا والكيمياء القائلين: إنَّ الكيمياء الحيويّة لا تدعم وجود نظريّة التّطوّر. ويُجمع هؤلاء على القول: إنَّ الخلايا في جسم الإنسان تعمل كمصنع متكامل ومُعقَّد، ولا يمكن للعمليّات العشوائيّة وغير الموجَّهة أن تنتج هذا النّظام المعقَّد مِنَ التّنظيم الخلويّ.

يرى المنتقدون أنَّ النّظريّة قامت منذ بدايتها على الأدلَّة الافتراضيّة، وقد اعترف «تشارلز داروين» (Charles Darwin) أنَّها غير موجودة بالفعل. إنَّ نظريّة دارون ليست حقيقة أو قانونًا علميًّا، فهي تحتمل التّصديق والتّكذيب، ومع ذلك لا يؤيّدها الواقع المشاهد؛ إذ لو كانت حقيقة لشاهدنا كثيرًا من الحيوانات والنّاس تأتي إلى الوجود عن طريق التّطوّر لا عن طريق التّناسل فقط، كما هو الواقع منذ ظهور الإنسان على الأرض.

إنَّ الفارق بين القانون والنّظريّة، هو أنَّ الأوّل يُوضع بناءً على العلاقات التي تربط بين متغيّرات وثوابت لتحديد العلاقة بينها وكيفيّة تأثّر بعضها ببعض. أمَّا النّظريّة العلميّة، فتوضَع لتكون فرضيّة تفسيريّة، يُصار إلى اختبار صحّتها، فإن قُبِلَت تصبح نظريّة علميّة. يجري التَّوصّل إلى القانون العلميّ من خلال الملاحظات والتّجارب المتكرّرة، مع أهمِّيّة أن تكون نتائج القانون متطابقة مع النّتائج التي تُرصد في الواقع. ومن الأمثلة على القوانين: قانون الجاذبيّة، غليان المياه على درجة 100، قانون أرخميدس، قانون حفظ الطّاقة. ومن الأمثلة على النّظريّات: التّطوّر البيولوجيّ، النّظريّة النّسبيّة، النّظريّة الكموميّة، نظريّة الصّفائح التّكتونيّة.

أمَّا النَّظريّة العلميّة فلا يكفيها تعدُّد الأدلَّة وتكرار النّتائج ليُصار إلى قبولها؛ بل يجب أن تخضع لمعيار قابليّة الدّحض لتُقبَل وتكون نظريّةً علميّة يُستند إليها. من هنا، لنا كلّ الحقّ في نقاش مشروعيّة الدّارونيّة، ووقف عدّها مقدَّسة من المحرّمات.

ويكمل المنتقدون بالقول: إنَّ القدرة على التّكيُّف التي نشاهدها في المخلوقات، مثل الحرباء التي تتلوَّن بحسب المكان، هي مقدرة كائِنَة في داخل المخلوقات وتولد معها، وهي عند بعضها وافرة، وعند البعض الآخر تكاد تكون معدومة، وهي عند جميع المخلوقات محدودة لا يصحّ تعميمها. فالقدرة على التكيّف صفة كامنة، لا صفة متطوّرة تُكوّنها البيئة كما يزعم أصحاب النّظريّة، وإلَّا لفرضت البيئة التّكيّف على الأحجار والأتربة وغيرها من الجمادات.

تتجاهل نظريّة «دارون»، مثلًا، الدّيناصور الضّخم، وهو أقدم الكائنات المكتشفة،

فلا يكون التّطوّر عكسيًّا من أعلى إلى أدنى؛ فالدّيناصور أضخم وأكبر، ولا علاقة له مع الأرنب والسّنجاب والنّمل، ولا حتَّى مع الفِيَلة في الحجم والتّركيب الخاصّ. كما أنَّ الأشجار التي لها تآلفات مع الكائنات التي تقتات مَنها أو تعيش على أغصانها أو في جذوعها أو إلى جوارها (الملايين مِنَ الطّيور والقردة وغيرها)، هل تطوَّرت هي أيضًا ولها جدّ واحد، أم تشترك مع الكائنات الأخرى في السّلالة نفسها لوجود قواسم دقيقة مشتركة في التّركيب الحيّ؟

أمَّا في ما يخصّ الإنسان والقرد، فقد أقرَّ داروين بوجود حلقة مفرغة، حاول بعض المتعصّبين له ملأها، وتبيّن أنَّ العمليّة حيلة بارعة ونحتٌ في جماجم القردة بعد أن نالت جائزة ملكة بريطانيا، فكانت فضيحة كبيرة[1].

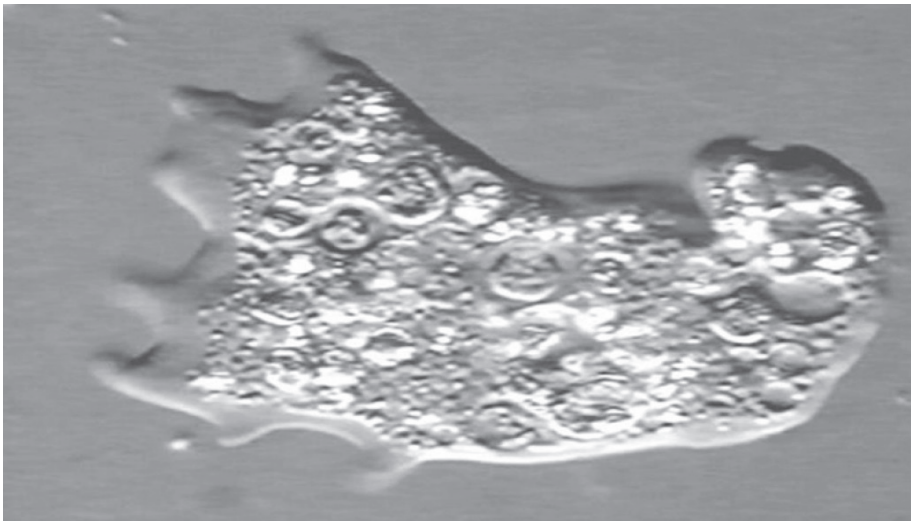

تُمثّل هذه الصّورة الخليَّة الحيّة الأولى، وهي نقطة البداية المزعومة التي ظهرت صدفة! والتي ـ من المفترض ـ أنَّه قد تفرَّع عنها الكائنات الحيَّة كلّها في ما بعد، وهو ما تُمثّله التّشجيرات العرضيّة لاختلاف أنواع الكائنات الحيَّة وتطوّرها عن بعضها. ولكن حتَّى هذا «الافتراض» الموهوم لم يصحّ كذلك من داروين؛ وذلك لأنَّه مع توالي الاكتشافات الحفريّة ومتحجّرات الكائنات الحيَّة السّابقة، وجد العلماء أنَّ كلّ كائن حيّ كان يظهر فجأة في زمنٍ ما وحقبةٍ ما مِنَ السّجل

1- مازن الشّريف، الإلحاد بين الحقيقة والوهم من دارون إلى هوكينغ، https://www.ma-zencherif.com.

الحفريّ، يستمرّ ظهوره كما هو، على حالته إلى اليوم، ولا تتغيّر حفريّاته في شيء! فبكتريا الماضي التي نكتشفها اليوم، هي مثل التي تعيش معنا الآن ولم تتغيّر! وكذلك حفريّات الأسماك، وحفريّات البرمائيّات والزّواحف والطّيور والثّدييّات!

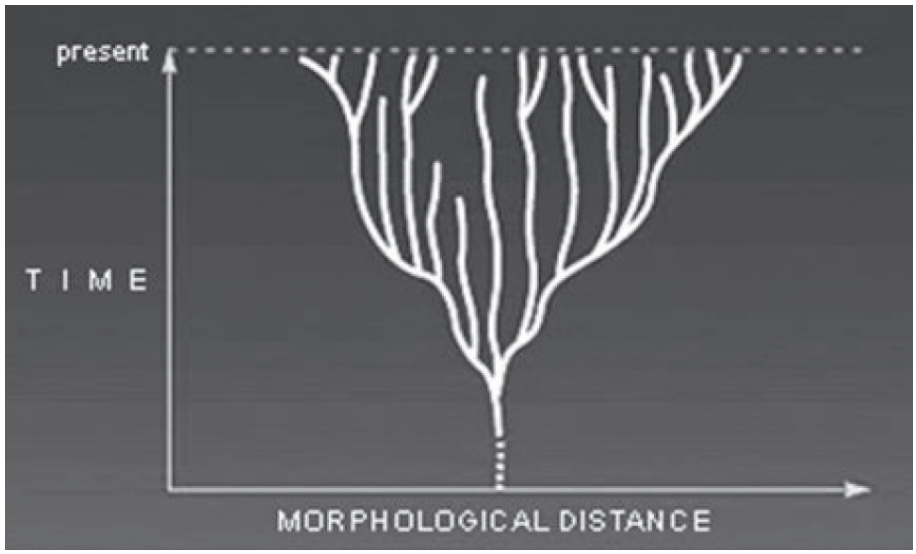

وكما في الصّورة أعلاه[1]: كلّ خطّ رأسيّ تمثّل بدايته الزّمنيّة من الأسفل بداية ظهور الكائن فجأة في السّجلّ الحفريّ! ثُمَّ إمَّا أن يستمرّ الخطّ إلى يومنا الحاضر بلا أدنى تغيير، وإمَّا أن يقف وينتهي قبل ذلك في ما يُعرف بعمليَّة الانقراض، والتي تكون نتيجة ظروف طبيعيّة، أو بفعل تعدِّيات البشر بغير حساب على بعض الكائنات الحيَّة فيقضون عليها.

ويعترف بذلك عالم الحفريّات المؤيِّد للتّطوّر في جامعة «هارفارد» «ستيفن جولد» (Stephen J. Gould)، في أواخر السّبعينيّات، إذ يقول: «إنَّ تاريخ معظم الحفريّات يحتوي على صفتَين لا تتماشيان مع التّدرُّج في إيجاد الكائنات الحيَّة:

الأولى: هي الاتّزان والاستقرار؛ إذ لا تتغيّر طبيعة الكائنات طوال مدَّة بقائها على الأرض، فالكائنات الموجودة في سِجِلّ الحفريّات تظهر وتختفي كما هي من دون حدوث تغيّرات عليها، وإنْ حدثت تغيّرات فإنَّها تكون طفيفة وفي الشّكل الخارجيّ، وليست باتّجاه أيّ تطوّر.

1- الكائنات متعدّدة الخلايا وحيدة والخلية وحيدة، https://microbiologynote.com.

الثّانية: وهي الظّهور المفاجئ؛ ففي أيّ منطقة، لا تنشأ الأنواع الجديدة تدريجيًّا منحدرة من كائنات أخرى، وإنّما تظهر فجأة وبتركيب مكتمل تمامًا»[1].

مثال آخر على سقوط فرضيّات «داروين» عن حدوث تطوّر في الكائنات الحيَّة وشجرته الشّهيرة، قوله بنفسه في كتابه «أصل الأنواع»: «إذا كان مِنَ الممكن إثبات وجود أيّ عضوّ جسديّ مُركَّب، وليس من المحتمل أنّه قد جرى تكوينه عن طريق تعديلات بسيطة وعديدة ومتتالية، فإنّ ذلك من شأنه أن يجعل نظريَّتي تنهار تمامًا!». ويعترف كذلك بانعدام وجود أيّ أدلَّة على المراحل البينيّة لتطوّر أيّ كائن حيّ (أي: الكائنات المتوسّطة بين أيّ كائنَين تطوّر أحدهما من الآخر)؛ فيقول في الصّفحة 275 من فصل الصّعوبات الخاصّة بالنّظريّة: «انعدام أو ندرة وجود الضّروب الانتقاليّة»، ويقول في الصّفحة التي تليها: «والبعض منها صعوبات في منتهى الجدِّيّة، إلى درجة أنّني إلى هذا اليوم أجد صعوبة في إمعان التّفكير فيها من دون الشّعور بدرجة ما مِنَ الذّهول»[2]!

2. الانفجار الكامبري:

يَعرض الباحث «مايكل دانتون» (Michael Denton) في كتابه «التّطوّر: نظريّة في أزمة»، أهمّ التّناقضات والمغالطات العلميّة التي وقعت فيها النّظريّة؛ ولعلَّ أهمّها كانت عقب اكتشاف ما يُعرَف بالانفجار الكامبري (Cambrian Explosion)، وهو الظّهور المفاجئ لأكثر من 41 شعبة من شعب الحيوانات بشكلٍ فوريّ منذ حوالي 550 مليون سنة، من دون أيّ سجلّ أحفوريّ يسبق هذه المدّة. يُسمِّي علماء الجيولوجيا والأحياء هذه الفترة الجيولوجيّة بـ«العصر الكامبري»، ويُجمعون على أنَّ ما حصل في هذا العصر هو «انفجار»، ويُسمّونه «الانفجار الكامبريّ»، نظرًا إلى العدد الهائل مِنَ الأحياء الذي ظهر بصورة تُعدّ مفاجئة وسريعة. وقد عثر علماء الجيولوجيا على مئات الآلاف من الأحافير في الطّبقات الجيولوجيّة التي تعود لذلك العصر الذي يفصله عنَّا أكثر من 500 مليون سنة، وأشهر مواقع الطّبقات هذه في بريطانيا وكندا وأستراليا، وآخرها كان في الصّين.

هذا الأمر شَكَّل أزمة عميقة بالنّسبة إلى مُناصِري نظريّة «دارون»؛ إذ إنّ النّظريّة

1- الأدلّة العلميّة للرّدّ على نظريّة التّطوّر صور وروابط علميّة، منتديات الهدى http://quran-ayat.com › threads.

2- تشارلز دارون، أصل الأنواع، ص 300.

تفترض ظهور الحيوانات بشكلٍ متدرّج بطيء، وهذا يعني بالضّرورة وجود سجلّ أحفوريّ مُتدرِّج مِن الأدنى إلى الأعلى يتوافق وهذه الرّؤية، وهذا ما حصل عكسه في الانفجار الكامبري[1].

في ما بعد، شَكّلت النّظريّة أزمةً حقيقيّة بين أوساط العلماء، خصوصًا في مطلع القرن العشرين، وهي الفترة التي وصفها مؤرِّخو العِلم بفترة كسوف الدّاروينيّة. وقد ازدادت الشّكوك والانتقادات المتعلّقة بنظريّة «داروين» واتّسعت بعد اكتشاف «غريغور مندل» (Gregor Mendel) قوانين الوراثة؛ لأنَّ الطّبيعة المنفصلة للطّفرات وتوارثها بموجب قوانين «مندل» تبدو متناقضة مع الافتراض الدّاروينيّ بأنّ التّطوّر يمرّ بتغيُّر تدريجيّ وبفترات متدرِّجة.

وفي الإطار نفسه، ووفاق دعوى الدّارونيّة التي تفترض ظهور الحيوانات بشكل متدرِّج بطيء، ثمَّة أسئلة لا بُدَّ منها لأنصار النّظريّة يستلزم الرّدّ والتّفسير: كيف تطوّر القرد والثّديّ مِن أحاديّ الخليَّة، وبأيّ عمليّات معقَّدة داخل الحمض النّوويّ؟ وكيف بُنيت سلسلته؟ وكيف انتظم تشفيره الجينيّ لملايين السّنين، وبأيِّ آليّة من دون تدخّل خارجيّ؟ ومن أين أتى هذا الجزيء الأدنى (النّيوكلوتيد)؟ وإن لم يكن من مُوجِد لَهُ، فكيف وُجد؟ وكيف يمكن تفسير ذلك العدد المهول منه وانتظامه مِنَ الحمض النّوويّ إلى البروتين والخليَّة والكائن الحيّ أو الفيروس أو البكتيريا، وكثرة أنواع كلّ نوع وتنسيقه في سلسلة تفاعليّة؟ وإن كان كلّ شيء جاء مصادفة من تخمّرات وتفاعلات، فمِنْ أين جاءت الأرض والماء؟

إنَّ القول بأنَّ الطّفرة العشوائيّة هي سبب من أسباب التّطوّر قول كارثيّ؛ لأنَّ تلك الدِّقَّة لا تحتمل أقلّ مِن واحد على مليار مِنَ العشوائيّة، أمام ذلك التّنظيم مِنَ التّكوينات الدّنيا والجينوميّة والجزئيّة والذّرِّيّة وما دونها، في تفاعلاتها الكيماويّة والحيويّة، وفي توازناتها ومحفّزاتها الطّاقيّة، وفي ما يحفّ بها ويؤطّرها من قوانين الفيزياء والظّروف المناسبة للوجود والبقاء، مثل الهواء والضّوء وطبيعة كوكب الأرض، وكلّ ما يخصّ تركيبته وما يحفظ الحياة على سطحه، وطبيعة الماء نفسه، وسبب كونه تحديدًا أساسًا للحياة والكائنات في تكوينها وفي حاجتها الدّائمة إليه أو وجودها في كنفه وداخله (الكائنات المائيّة)، وتركيبة الضّوء في حدِّ ذاته وآليّات وصوله ودوره في الحياة، ونموّ الخلايا وبقاء الكائن وأجهزة التّصفية

1- مايكل دانتون، التّطوّر نظريّة في أزمة، ص 232.

الكوكبيّة والجوِّيّة التي بها يُصار إلى وصوله دون سواه من أنواع الأشعة الضّارَّة بالحياة والقاتلة، والهواء وتوازنه مع مختلف الغازات الأخرى ضمن حسابات دقيقة تجعل التّنفّس ممكنًا وللأكسجين تحديدًا دون غيره[1].

3. حاجة الكائنات إلى بعضها:

أمرٌ آخر، وهو أنَّ كلّ كائن حيّ محتاج إلى كائن آخر، والاحتياج لا يتوقَّف؛ بمعنى أنَّ الكائن منذ وجوده الأوَّليّ يحتاج إلى كائنٍ ينقسم منه؛ ولكي يستمرّ، فهو محتاج إلى كائن آخر يتغذَّى منه؛ بل ويعطيه ليس الغذاء فقط، وإنّما الخبرة والمساندة والقوّة، ومن دون كائن أو كائنات أخرى مستحيل أن يتغذَّى.

والسّؤال هنا: من أين أتى الكائن الأوّل بالغذاء العضويّ أو الكائنات الأخرى لكي تتغذَّى وتستمرّ؟ سؤال آخر: متى يُعطي الكائن كائنًا آخر، سواء كان أقلّ الكائنات؛ أي وحيد الخليّة، أو أعقد الكائنات، وهو الإنسان؟

إنَّ الإنسان غير الحضاريّ الذي تقول الدّارونيّة إنَّه من دون شعر ومندثر، بالرّغم من أنَّه غير حضاريّ نَجَا مِن عوامل الطّبيعة ومِنَ الوحوش، مع أنَّه لا يملك أيّ شيء ليحميه منها: لا مخالب ولا فكًا قويًّا ولا شعرًا يحميه من تغيّرات الطّبيعة، ولا عقلًا أيضًا يقوده. فكيف ينجو من هذه الظّروف، وينمو عدديًّا بدرجة قويّة ومتسارعة، على الرّغم من أنَّ الظّروف كلّها تعمل ضِدَّه لكي تُخرج منه طفرة وهو الإنسان العاقل، ثُمَّ يندسّ من دون أثر؟ كيف يكون ذلك كلّه مقبولًا من دون مستند علميّ؟

ثُمَّ إنَّ هذا الإنسان غير الحضاريَّ تطوَّر فجأةً إلى إنسان حضاريّ عاقل، بمعنى أنّ طَفرة ما جعلته فجأة يُفكِّر ويعقل ويُخطِّط ويتكلَّم، مختلفًا عن جميع الحيوانات. وعلى الرّغم من آلاف الاعتراضات على هذه الدّعوى ضِدَّ الطّفرة المستحيلة، فإنَّها حدثت مع اثنين فقط؛ ذكر وأنثى، بالطّريقة المستحيلة نفسها، ثُمَّ تلاقيا ليكونا زوجَين بدأت بهما الحضارة البشريّة. أين المنطق العلميّ هنا؟

في الواقع، نحن نوافق على أنَّ التّطوّر موجود، ولكن ليس من نوعٍ إلى آخر؛ بل في داخل النّوع نفسه، باحتمالَين:

الأوّل: أن يكون المُوجِد قد أَوْجَد الأنواع ضمن عائلات بينها علاقات جينيّة،

1- مازن الشّريف، الإلحاد بين الحقيقة والوهم من دارون إلى هوكينغ، https://www.mazencherif.com.

يمكن بدراستها تبيين الصّلة بينها؛ بل جَعَل على ذلك أدلَّة ليست فقط في الجينة الخفيَّة، وإنَّما في الخلّة الظّاهرة والشّكل الجسميّ والخصائص، وأَوْجَدَ لذلك آليَّة تجعل النّمر الأبيض منحدرًا مِن سلالة نمر آخر، أو النّمور والأسود والفهود تنحدر من جدٍّ واحد، ولكنَّها حتمًا لا تشترك مع الحمائم والغزلان والتّماسيح والأسماك في الجدِّ نفسه.

وبذلك، يكون للخالق أن يطوّر ضمن العائلة نفسها أو النّوع؛ فتتناسل لتتكوّن منها سلالات جديدة أرقى أو أكثر ملاءمة للظّرف العامّ للأرض أو للحاجة الوجوديّة والحكمة من وجودها. وفي هذه النّقطة، وبهذا التّحديد، تكون نظريّة التّطوّر صحيحة بصحَّة هذا الاحتمال، ولكن مع وجود خالِق فاعِل ومُفعّل، لا مصادفات عشوائيّة عمياء. ولو أنَّ «داروين» ومَن ناصرَه من علماء وجّهوا بحثهم في هذا الاتّجاه، لما كانت نظريّة التّطوير متَّصلة بالإلحاد مطلقًا، ولمَا وقع في خطأ التّعميم (أنَّ لكلّ الكائنات جدًّا بيولوجيًّا واحدًا). ولكن، يُحتمل أن يكون لكلِّ نوع وعائلة جدّ بيولوجيّ واحد، خُلق بصفاته المكتملة وجُعل له زوجٌ، ثُمَّ انحدرت منه سلالة كاملة، وهو شأن آدم وسلالته.

الثاني: أنَّ كلّ نوع وكلّ عائلة خُلقت مكتملة ومنفصلة، ويمكن أن يكون الإيجاد والإظهار للكائنات على مراحل، ومصداق ذلك أنَّ ظهور الدّيناصور سابق لمعظم الكائنات الأرضيّة، وانقراض نوع يعني ظهور أنواع لم تكون موجودة، ولا صلة لها تناسليًّا وبيولوجيًّا بأنواع قريبة منها أو من العائلة نفسها[1].

4. الاستدلاليّ الدّائريّ المعكوس:

يعتقد المنتقدون للدّارونيّة بعدم وجود حفريّات تدعم نظريّة التّطوّر؛ بل مجرَّد استخدام مغالطات الاستدلال الدّائريّ؛ بمعنى الانطلاق مِنَ النّتيجة للبحث عن دليلها، فلا يكون الدّليل هو الذي يقود إلى النّتيجة كما في النّظريات العلميّة كلّها، ولكن يستدلّ على التّطوّر بأن توضع النّتيجة أوَّلًا كنظريّة مفروغ منها، ثُمَّ يُصار إلى وضع أيّ أدلَّة أخرى، بدءًا من الأدلَّة المزعومة في الحفريّات ووصولًا إلى الأدلّة بارتقاء الاكتشافات المتوالية فيه خطوة بخطوة، بحيث تُستغلُّ أيضًا الأعضاء ووظيفتها لصالح التّفسير التّطوّريّ، كما حصل في القرن التّاسع عشر

1- H. Yahya, The Evolution Deceit, The Scientific Collapse of Darwinism and Its Ideological Background, https://www.amazon.com.

عندما وضع أحد علماء الدّاروينية قائمة فيها حوالي 86 عضوًا ضامرًا على صحّة التّطوّر، وهو يجهل وظيفتها في الكائن الحيّ. ثُمَّ مع توالي الاكتشافات العلميّة والتّشريحيّة، لم يتبقَّ من هذه القائمة عضو واحد ليس له فائدة، بعكس ما افترضه مؤيّدو نظريّة التّطوّر من أنَّها من بقايا التّطوّر، وأنَّها من دون فائدة في جسم الإنسان، وكان من تلك القائمة الغدد الصّمّاء قبل اكتشاف الهرمونات، إلى آخر ذلك ممَّا يُعوّل عليه لجعل النّتيجة أوّلًا حقيقة مفروغًا منها، ثُمَّ تفسير أيّ شيء على أنَّه تطوّر. فلا يصحّ اتّباع هذا الأسلوب لإثبات صحّة النّظريات؛ بل العكس هو الصّحيح؛ أي الدَّليل ثُمَّ النّتيجة، فالنّظريّة لم تقدّم شيئًا للعِلم، ووصفت بأنَّها أكبر خدعة في تاريخ العلوم.

5. أزمة الحفريّات بالوقائع:

إنَّ المشكلة الأساسيّة في إثبات النّظريّة تكمن في سجلّ المتحجّرات؛ أي مستحثّات الكائنات الحيَّة المحفوظة في التّكوينات الجغرافيّة للأرض، فلم يكشف هذا السّجلّ قطّ آثارًا لكائنات وسطيّة للانتقال من نوع إلى نوع، مثل التي افترضها «دارون»، وعوضًا عن ذلك تظهر الأجناس وتختفي فجأة، ويدعم هذا الانتقال حجّة دعاة الخَلق بأنَّ الأنواع قد خلقها الله. كما أنَّ الأدلَّة العلميّة الأوَّليّة التي ارتكز عليها تشكيل التّأريخ التّطوّريّ للإنسان وبناؤه هي مجموعة صغيرة مِنَ العظام.

شبّه أحد الأنثروبولوجيّين هذه المهمَّة بتلك التي تُعيد بناء سيناريو فيلم عن السّلم والحرب، اعتمادًا على خمس عشرة صفحة مختارة عشوائيًّا، فلم يعد ثمّة أيّ مجال للاعتذار بفقر المتحجّرات؛ إذ أصبحت هذه المتحجّرات غنيَّة إلى درجة أصبح مِنَ الصّعب فرزها وتصنيفها، وأصبح الاكتشاف يسبق عمليّات التّوحيد والدّمج. ومع ذلك، فإنَّ سجلّ المتحجّرات لا يزال يحتوي على فجوات كبيرة، ولا يصحّ أنَّ الحفريات توفّر جزءًا مهمًّا مِنَ الحجّة لصالح التّفسيرات الدّاروينيّة في تاريخ الحياة.

وفي ما يلي نعرض نماذج عن حفريات تخالف نظريّة التّطوّر:

أ. العثور على آثار أقدام إنسان عصريّ عُثِر عليها سنة 1977م في منطقة بتنزانيا:

لقد وُجدت هذه الآثار في إحدى طبقات الأرض التي قُدّر عمرها بنحو 3.6 مليون سنة. والأهمّ من ذلك، أنَّ هذه الآثار لم تكن تختلف عن آثار الأقدام

التي يُخلّفها الإنسان العصريّ، وقد درس هذه الآثار عدد من علماء مستحاثّات البشر، فأظهرت النّتائج أنَّه ما من شكّ في أنَّ هذه الآثار تُشبه آثار أقدام الإنسان العصريّ؛ فقوس القدم مرتفع وإصبع القدم الكبير ضخم ومحاذٍ للإصبع الثّاني، وتقبض أصابع القدم على الأرض مثلما تقبض عليها أصابع الإنسان، وهو ما لا يُرى في أشكال الحيوانات الأخرى.

وقد أظهرت الدّراسات التي أُجريت على البنيَةِ الشّكليَّة لآثار الأقدام مرارًا وتكرارًا، أنَّه كان يجب أن تقبل بوصفها آثار أقدام الإنسان، بل أكثر من ذلك، إنَّها آثار أقدام إنسان عصريّ (إنسان اليوم)، فبعد فحص هذه الآثار تبيَّن أنَّها تعود لأقدام إنسان عاقل[1]. فأين التّطوّر طيلة هذه المدّة؟!

ب. اكتشاف كوخ يعود تاريخه إلى 1.7 مليون سنة، عُثر عليه في أوائل السّبعينيّات في منطقة في جورجيا:

ففي هذه المنطقة، في الطّبقة الثّانية من طبقات الأرض، اكتُشف أنَّ أنواع القرد الجنوبيّ والإنسان القادر على استخدام الأدوات، والإنسان منتصب القامة، كانوا يعيشون معًا في الفترة الزّمنيّة نفسها. والأمر الأكثر إثارة للدّهشة هو البناء الذي عُثر عليه في المنطقة نفسها؛ إذ عُثر على بقايا كوخ خشبيّ، ويتمثَّل الجانب غير العاديّ في هذا الحدث في أنَّ هذا البناء الذي لا يزال يُستخدم في بعض أجزاء من أفريقيا ما كان يمكن لأحد بناؤه، سوى الإنسان العاقل. ووفاقًا لمَا توصَّل إليه مكتشفوه، لا بُدَّ من أن يكون القرد الجنوبيّ والإنسان القادر على استخدام الأدوات والإنسان منتصب القامة والإنسان العصريّ، قد عاشوا معًا قبل نحو 1.7 مليون سنة تقريبًا[2]. فأين التّطوّر؟!

ج. اكتشاف عظمة بشريّة تعود ل 1.84 مليون سنة:

والعظمة عبارة عن خنصر في اليد اليسرى لإنسان عاديّ، والعظمة تتطابق مع عظام البشر الحاليّين بشكلٍ كبير، ولا يمكن نسبها إلى أسلاف البشر. هذا الاكتشاف شكّل صدمة لأنصار نظريّة التّطوّر، وعارض رواية أسلاف البشر وتطوّرهم؛ فالإنسان القديم هو نفسه الإنسان الحاليّ بكامل تميّزه عن غيره من القرود[3].

1- طالب الجنابيّ، نظريّة التّطوّر خرافة باسم العلم، ص 182.

2- أورخان محمّد علي، تهافت نظريّة داروين في التّطوّر أمام العلم الحديث، ص 57.

3- المصدر نفسه.

د. اكتشاف حفريّة ساحل «نشروباس تشادينسيز»:

وهي عبارة عن «جمجمة» اكتُشفت في التّشاد بوسط أفريقيا في صيف 2002م، بعمر يصل إلى 7 ملايين سنة، وتشبه جمجمة الإنسان الحاليّ، وتعدّ أقدم عضو في العائلة البشريّة. وتُبيّن الجمجمة بشكلٍ حاسم أنَّ الفكرة القديمة المتَّصلة بالحلقة المفقودة ما هي إلَّا افتراضات لا قيمة لها، ولا بُدَّ من أن يكون جليًّا أنَّ لبّ فكرة الحلقة المفقودة الذي كان موضع شكّ لا يمكن التّمسُّك به مطلقًا بعد هذه الحفريّة، وحتَّى بعض مؤيّدي نظريّة التّطوّر قد اعترفوا أنَّ هذه الجمجمة المكتشفة يمكن أن تقضي على أفكارهم بشأن تطوّر الإنسان[1]، وأنَّ لهذا الاكتشاف أثر قنبلة نوويّة صغيرة عليهم.

هـ. العثور على مستحاثّات ديناصورات مِن 20 إلى 40 ألف سنة:

كانت بدايتها عام 1997م، عندما ضُبطَتْ بقايا بروتينات دمّ في عظام ديناصور المفترض أنَّه انقرض منذ 65 إلى 80 مليون سنة، حسب تنبّؤات الرّواية الدّاروينيّة. ثُمَّ تكرَّر الأمر في عام 2002م بالعثور على أنسجة مَرِنَة وليّنة في بقايا عظام الدّيناصورات، وظلَّت الصّدمة مهيمنة، وتواصل الحديث عنها في المجلَّات العلميّة من حين لآخر، وقُدِّمَت 20 عيّنة مِن حفريّات لديناصورات مختلفة، فُحِصت بطرق معيَّنة باستخدام الكربون 14 المشعّ، أثبتت أنَّ أعمارها تتراوح ما بين 22 إلى 40 ألف سنة فقط، وقدّمت هذه الحقائق كلّها سنة 2013م[2].

و. اكتشاف حفريّة في أسبانيا سنة 1995م على أيدي ثلاثة علماء متخصّصين في الأنتروبولوجيا القديمة:

والحفريّة عبارة عن وجه صبيّ في الحادية عشرة من عمره، كان يبدو مثل الإنسان العصريّ تمامًا، على الرّغم من مرور 800 ألف سنة على وفاته؛ أي أقدم مِن الـ200 ألف سنة التي قدَّر التّطوّريّون فيها عمر ظهور الإنسان، الأمر الذي أدهش علماء الحفريّات.

ز. إنسان «بلتداون» (Piltdown Man):

ادَّعى مؤيّدو نظريّة التّطوّر العثور على عظمة فكّ وجزء من جمجمة في حفرة بإنجلترا، وأنَّ عظمة فكّها أشبه بفكِّ القرد، والأسنان والجمجمة كانت أشبه

1- جوزيف كون، جامعة بايلور الطّبيّة: تشريح الدّاروينية، موقع واي باك مشين.

2- المعجم الموحّد لمصطلحات علم الأحياء، ص 115.

بأسنان وجمجمة الإنسان، وزعموا أنَّ عمرها أكثر من أربعين ألف سنة، فأُعِدَّت لها رسومات وتأويلات، وقدَّموها بوصفها دليلًا مهمًّا على تطوّر الإنسان، وأنَّها اكتشاف مذهل عن الإنسان البدائيّ.

وفي سنة 1949م، حاول علماء المتحجّرات البريطانيّون تجربة طريقة اختبار «الفلور» لتحديد تاريخ المتحجّرة، فأُجري الاختبار على متحجّرة إنسان بلتداون، فكانت النّتيجة أنَّ عظمة الفكّ لا تحتوي على أيّ فلور، ويدلّ هذا على أنَّها لم تبقَ مدفونة في الأرض لأكثر من بضع سنين. أمَّا الجمجمة التي احتوت على مقدار ضئيل من الفلور، فقد تبيَّن أنَّ عمرها لا يتجاوز بضعة آلاف من السّنين، كما اتَّضح أنّ الأسنان الموجودة في عظمة الفكّ تنتمي إلى الأورانجوتان (Orangutan) قد تآكلت اصطناعيًّا، وأنَّ الأدوات البدائيّة المكتشفة مع المتحجّرات هي مجرَّد أدوات بسيطة مقلَّدة شُحِذَت بواسطة أدوات فولاذيّة.

وبالتّحليل المفصَّل، كُشف هذا التّزوير للجمهور بعد 40 سنة، وذلك سنة 1953م؛ فالجمجمة تخصّ إنسانًا عمره نحو خمسمئة سنة، في حين كانت عظمة الفكّ السّفليّ تخصّ قردًا ماتَ مؤخّرًا، وقد رُتِّبَت الأسنان على نحو خاصّ في شكل صفٍّ، ثُمَّ أُضيفت إلى الفكِّ وجرى حشو المفاصل لكي يبدو الفكّ شبيهًا بفكِّ الإنسان. وبعد ذلك، لُطِّخَتْ هذه القطع كلّها بثنائيّ كرومات البوتاسيوم لإكسابها مظهرًا عتيقًا، ثُمَّ بدأت هذه اللّطخ بالاختفاء عند غمسها في الحمض، فكانت الأدلَّة واضحة على زيفها، وانْطَلَت هذه الخدعة على العلماء لمدَّة 40 عامًا[1].

ح. سمكة «سيلاكانث»:

وهي السّمكة التي رأى مؤيّدو نظريّة التّطوّر، في حفريّات، جسمها الممتلئ وبقايا أعضاء داخليّة، فظنُّوا أنَّها مثل البرمائيّات، وكذلك رأوا زعانفها الكبيرة فتخيَّلوا أنَّها جدّ البرمائيّات التي انتقلت بالأسماك من عالم البحار إلى البرِّ، فقالوا: إنَّها منقرضة لأنَّ أحدًا لم يَرَها حيَّة إلى اليوم، وأنَّها عاشت منذ 70 مليون سنة، وأنَّها كانت تعيش قرب سطح الماء لكي يسهل عليها القفز إلى البرِّ، فجعلوها أحد أدلَّة نظريّة التّطوّر.

لكنّ ذلك لم يكن صحيحًا، ففي 22 كانون الأوّل/ ديسمبر 1938، ومع تطوّر أدوات الغوص والصّيد في أعماق البحار، اصطيدت أوَّل سمكة من هذا النّوع،

1- Weiner، J. S., The Piltdown Forgery, p. 190-197.

ليتأكّـدوا أنَّهـا لا تـزال حيَّـة إلـى اليـوم؛ أي لـم تنقـرض أصـلًا، ولكنَّهـا تعيـش فـي الأعمـاق، ولذلـك لـم يكـن أحـدٌ يراهـا إلى ذلـك الوقـت، وأنَّ أعضاءهـا الدّاخليَّة ليسـت مثـل أعضـاء البرمائيّـات. ثُـمَّ توالـت عشـرات الاصطيـادات لهـا حـول العالـم، حتَّـى أنَّ أحـد مَـن انخـدع بهـا فـي البدايـة، وهـو عالـم الكيميـاء التّطـوّريّ «جـي سـميث»، وهـو الرّئيـس الشّـرفيّ لمتاحـف أسـماك جنـوب إنجلتـرا، قـال: «إنَّ العثـور علـى سـمكة (كويلامانـث) حيَّـة هـو مثـل العثـور علـى ديناصـور فـي الشّـارع»[1].

يبقـى أنْ نُشـير أنَّ «دارون» قـد تنبَّـأ بحفريّـات تؤكّـد نظريّتـه، وكان يأمـل ظهورهـا فـي المسـتقبل، ولكـن أيًّـا مـن ذلـك لـم يحـدث، فيعتـرف علمـاء الحفريّـات الدّاروينيّين أنَّ أمـل «دارون» لـم يتحقّـق ولا تنبّؤاتـه، وعلـى الرّغـم مِـنَ البحـث الكثيـف لأكثـر مـن مئـة عـام بعـد مـوت «دارون»، إلَّا أنَّ الاكتشـافات الحفريّـة لـم تكشـف عـن الصّـورة المتكاملـة مِـنَ الكائنـات الانتقاليّـة التـي توقَّعهـا دارون!

6. الاستحالة الرّياضيّة للتّطوّر بالعشوائيّة والصّدفة:

يعـرب علمـاء الرّياضيّـات عـن قلقهـم بشـأن الأُسـس الرّياضيّـة المسـتخدَمة للتّطـوّر، وإلصـاق الأمـر بالاحتمـالات والصدّفـة لتفسـير روعـة الوجـود والكائنـات وعظمتهـا، فالعالِـم الرّياضـيّ «ستانيسـلو أولام» (Stanisław Ulam) قـال فـي ورقتـه المعنونـة «كيـف تصيـغ المشـاكل الرّياضيّـة لمعـدّل التّطـوّر»: «يبـدو أنَّـه يلـزم وجـود الآلاف، بل وربّمـا الملاييـن مـن الطّفـرات النّاجحـة كـي تنتـج أبسـط تعقيـد نـراه فـي الحيـاة اليوم».

وذكـر عالـم الرّياضيّـات والبيولوجيـا «ديفيـد بيرلينسـكي» (David Berlinski): «نريـد 50 ألـف تحـوّل فـي كائـن برِّيّ لكـي يتطـوَّر إلـى حـوت، الأمـر أشـبه بتحويـل سـيّارة إلـى غوّاصـة مائيّـة»[2].

أ. حساب المدَّة اللّازمة لظهور طفرة مفيدة:

قـدَّم «التّطـوّري» «ريتشـارد سـتيرنبرغ» ورقـة بحثيَّة تحـت عنوان: «انتظـار طفرتَيـن: مـع تطبيـق علـى تطـوّر تسلسـل تنظيمـيّ ومحدوديّـة التّطـوّر الدّاروينـيّ»، وبيَّـن فـي دراسـته

1- اصطيـاد سـمكة سـيلاكانث فـي 21/1/ 2003م، وثيقـة 10/7/2017ك علـى موقـع واي بـاك مشـين.

2- Durrett R, Schmidt D., Waiting for two mutations: with applications to regulatory sequence evolution and the limits of Darwinian evolution، Genetics, 2008, No 180(3):1501.

أنَّه بالنّسبة إلى ذبابة الفاكهة، الأمر يحتاج إلى بضعة ملايين سنة لحصول الطّفرة المطلوبة مع تثبيتها. أمَّا بالمقارنة مع البشر، ذوي العدد السّكّانيّ الأقلّ، فسيتطلَّب الأمر أكثر من 100 مليون سنة من تفعيل السّرطان فيهم لحصول الطّفرة المطلوبة. وبالحساب الرّياضيّ للمعادلات حصلوا على نتائج متفاوتة، وصلت حتّى الحاجة إلى 216 مليون سنة للوصول إلى الطّفرة المطلوبة الواحدة، لكنَّ أغلبّ البروتينات تتكوَّن من مئات الأحماض الأمينيّة، وتاليًا تحتاج إلى مئات الطّفرات الصّحيحة، ما يضاعف المدَّة اللّازمة بشكل أسّيّ[1].

ب. احتماليّة تكوُّن بروتين واحد بالطّفرات العشوائيّة:

البروتين هو مُركَّب وظيفيّ حيويّ، وحدة بنائه الأساسيّة هي الأحماض الأمينيّة. يوجد في سيتوبلازم الخليَّة البشريّة 20 حمضًا أمينيًّا مختلفًا. ذكر «ويندل بيرد» بروتين الكولاجين مثالًا، واحتسب احتماليّة نشوئه بالصّدفة. يتكوَّن الكولاجين من سلسلة من الأحماض الأمينيَّة تحوي 1055 حمضًا أمينيًّا مرتّبةً بعضها مع بعض. فتكون بذلك احتماليّة نشوء البروتين بالصّدفة تساوي 10/1 مرفوعًا إلى 527.

أمَّا حتّى تكون البروتينات وظيفيّة، فيجب أن تكون الأحماض الأمينيّة ميسَّرة ـ كما ذكرنا ـ لتمكّن من تشكيل الشّكل ثلاثيّ الأبعاد للبروتين، وتاليًا سيضطرّنا الأمر إلى ضرب الأُسّ النّاتج بـ 2؛ فتكون النّتيجة 10 أس 1054 وهذا مستحيل رياضيًّا. وقد بيَّن علماء الرّياضيّات، أنَّه إذا نقص العدد عن 10/1 أس 50، يُعدّ مساويًا للصّفر الرّياضيّ. ولكن بلحاظ وجود احتمال، ولو كان ضئيلًا، ألا يعني هذا إمكانيّته؟

لتقريب تصوّر حجم العدد أكثر، نورد بعض النّقاط: جميع الذّرّات في الكَوْنِ مجموعها 10 أُس 80 ذرّة. ومضى على الانفجار الكبير (بداية الكَوْن) 10 أُس 17 ثانية. فرياضيًّا، وكما أوضح «ويليام ستوكس»: «لو أحضرنا مليارات الكواكب مثل كوكب الأرض، وامتلأت هذه الكواكب كلّها عن آخرها بالأحماض الأمينيّة، وانتظرنا عليها مليارات السّنين، فلن نحصل على بروتين واحد»[2].

1- Durrett R, Schmidt D., Waiting for two mutations: with applications to regulatory sequence evolution and the limits of Darwinian evolution، Genetics, 2008, No 180 (3) :1501.

2- Ibid.

ج. احتمال تكوّن بروتينات خليَّة جرثوميّة:

احتسب «روبرت شابيرو» (Robert Shapiro)، أستاذ الكيمياء بجامعة نيويورك والخبير في مجال الحمض النّوويّ، احتمال التّكوُّن الصّدفيّ لـ2000 بروتين لخليّة جرثوميّة واحدة، وهي من أبسط أشكال الحياة، فكانت النّتيجة التي وصل إليها هي: 1 إلى 10 مرفوعًا إلى 40.000؛ أي 1 وبجانبه 40 ألف صفر؛ وذلك لإنشاء خليّة جرثوميّة واحدة فقط، وهذا الرّقم هو خيال من النّاحية الرّياضيّة بالنسبة إلى كوننا كلّه، وليس فقط للكرّة الأرضيّة[1].

تهافت القيمة التّربويّة والتّعليميّة للنّظريّة

على المستوى التّعليميّ، وعلى امتداد العالم، يوجد علماء يرفضون تدريس التّطوّر في المدارس الثّانويّة، وقد بدأت بعض الدّول بالتّخلّي عن تدريس نظريّة التّطوّر أو تدريس التّصميم الذّكيّ إلى جانبه. ففي كوريا الجنوبيّة أُعلن عن وجود أخطاء فادحة في نظريّة التّطوّر، واستغنت وزارة التّعليم العاليّ بجامعة «سيول» عن تدريسها في المدارس نتيجة الأخطاء الفادحة في الحفريّات التي زُعم أنَّ لها علاقة بالتّطوّر.

وفي بريطانيا، بدأ دخول التّصميم الذّكيّ إلى بعض المدارس. وفي بولندا، بدأت مع تسعينيّات القرن العشرين عودة تعليم الخلق في صورة التّصميم الذّكيّ أو التّقدير الحكيم، في مقابل تراجع تعليم التّطوّر. وفي تركيا، بدأ الاهتزاز للتّطور منذ عام 1985م، وذلك عندما أعطى معهد أبحاث الخلق بكاليفورنيا في أمريكا نصائح لهيئة التّدريس والتّعليم في تركيا حول كيفيّة تدريس القول بالخَلق في المدارس والجامعات. وقد أُثيرت منذ عام 2012م، إثر التّضييق الشّديد على كُتُب تدريس والتّطوّر ونشره، حتّى انتهى الوضع إلى زوال نظريّة التّطوّر وانحسارها، في مقابل التّصميم الذّكيّ.

وفي المغرب، حُذِف التّطوّر من مُقرَّر البكالوريا، شعبة الأحياء، منذ سنة 2014م. أمَّا في الولايات المتّحدة، التي فقد أظهر استطلاع الرّأي أنَّ 90% من الأمريكيّين يُشككون في التّطوّر من دون تدخّل الإله؛ إذ شهدت بعض الولايات

1- Durrett R, Schmidt D., Waiting for two mutations: with applications to regulatory sequence evolution and the limits of Darwinian evolution، Genetics, 2008, No 180 (3) :1501.

الأمريكيّة المُتحفِّظة نهضة مناوئة لنظريّة التّطوّر بعد انتشار الانتقادات، فبدأت عودة تدريس الخَلق الذي حُظر في العديد من الولايات، سواءً في المدارس العامّة أو الخاصّة، وقد خرجت إدارة تعليم ولاية كنساس ـ عندما صوَّت أغلبيّة أعضائها ـ على قرار يقضي بإسقاط نظريّة التّطوّر المتعلّقة بأصل الإنسان. وعلى إثر ذلك القرار، أعلنت إدارة التّعليم في ولايتَيّ تينيسي ولويزيانا أنَّه يحقّ للمدرسة الحكوميّة في هذه الولاية أن تطرد أيّ مدرس يشرح نظريّة التّطوّر على أنَّها حقيقة علميّة مُسلَّم بها، ولأوَّل مرَّة في ولاية تينيسي جرى تدريس التّصميم الذّكيّ إلى جانب التّطوّر. كما أصدر مجلس ولاية جورجيا قرارًا يقضي بأنَّ على كلِّ مدرسة حكوميّة في الولاية أن تضمن لتلاميذها دراسة نظريّات من دون أفضليّة. وثمّة مجالس تعليميّة في ولايات أخرى تُوصي بتدريس الكتب التي تنتقد نظريّة التّطوّر، وقد بلغ مجموع الولايات الأميركيّة التي أوقفت تدريس الدّارونيّة وتبنِّيها 42 ولاية. وفي الهند، أعلنت ولاية كارناتاكا إلغاء تدريس التّطوّر لعدم استناده إلى أدلَّة علميّة، وقضت بحذفها مِنَ الكتب التّعليميّة.

الدّاروينيّة الاجتماعيّة

هي حركة اجتماعيّة تدعو إلى تطبيق المفاهيم البيولوجيّة للانتخاب الطّبيعيّ والبقاء للأصلح على علم الاجتماع والسّياسة، وتؤمن بتفوّق العرق الأوروبيّ الأبيض على باقي الأجناس البشريّة. وقد استُخدمت لتسويغ الاستعمار الأوروبيّ للأمريكيّتَين وأفريقيا والشّرق الأوسط والهند وآسيا؛ كون شعوبها «أعراقًا أدنى في السّلَّم التّطوّريّ، وأنَّهم أقرب إلى القرود والحيوانات منهم إلى البشر المتطوّرين، سواء في الذّكاء والابتكار أو في الشّكل الخارجيّ والرّقيّ الحضاريّ والثّقافيّ». تاليًا، فإنَّ العرق الأبيض الأوروبيّ أولى بثرواتهم، كونه العرق الذي اصطفاه الاصطفاء الطّبيعيّ. ويدعو بعضهم إلى «الإبادة الجماعيّة للأعراق الأدنى الأخرى؛ لأنَّهم رعاع همج يستهلكون الطّعام وينتجون ذرِّيّة مشوَّهة بين الإنسان والقرد، كما أنَّهم تهديد دائم للأوروبّيّين البيض المتطوّرين»، ومن أجل تسريع الاصطفاء الطّبيعيّ لتتطوَّر البشريّة بصورة أسرع.

لقد تضاءلت شعبيّة الدّاروينيّة الاجتماعيّة على نطاق واسع في أعقاب الحرب العالميّة الأولى، وأصبحت سيّئة السّمعة إلى حدٍّ كبير بحلول نهاية الحرب العالميّة

الثّانية، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى دعوى ارتباطها بالنّازيّة، وجزئيًّا إلى الإجماع العلميّ المتزايد على أنّه لا يوجد أساس للنّظريّة مِنَ النّاحية العلميّة[1].

غالبًا ما أُشير إلى أنَّ التّنافسيّة الاجتماعيّة المؤدِّيّة إلى سياسات مصمّمة لمكافأة الأكثر تنافسيّة هي استتباع منطقيّ لـ«الدّاروينية»، كنظريّة الانتخاب الطّبيعيّ في علم الأحياء. ويدرك عدد من العلماء وجود روابط تاريخيّة بين تعميم النّظريّة وأشكال من الدّاروينيّة الاجتماعيّة، إلّا أنّهم يُؤكّدون أنَّ الدّاروينيّة الاجتماعيّة ليست نتيجة حتميّة للتّطوّر البيولوجيّ.

الدّارونيّة ثقافيّة أيضًا!

برزت محاولات إسقاط نظريّة «داروين» على الثّقافة مع المصطلح الشّهير «الميم» (meme) لـ«رتشارد دوكنز»، في كتابه الشّهير «الجين الأنانيّ» عام 1976م، وفيه فصَّل الميميّة (memetics) أو علم التّطوّر الثّقافيّ. ومع أنَّ هذه النّظريّة حظيت بشعبيّة واسعة، لكنّها لم تَنَلْ دعمًا كبيرًا في الأوساط العلميّة.

تسعى نظريّة «الجين الثّقافيّ» إلى عقد مقارنة قويَّة بين التّطوّر على المستوى الثّقافيّ والتّطوّر البيولوجيّ لتقول: إنَّ الوجودات التي لها القابليّة على الاستنساخ المخلص لذاتها تستطيع توضيح هذا التّشابه العابر للأجيال. في مستوى النّماذج البيولوجيّة للتّطوّر، يُفترض أنَّ الجينات هي المستنسخ الملائم. فالجينات تعمل نسخًا لنفسها، وهذه القدرة توضح لماذا الذّرِّيّة تشبه آباءها. يضع «دوكنز» قائمة بأشكال الجين الثّقافيّ؛ مثل لألحان الجميلة وملابس الموضة وطرق عمل القدور وبناء الأقواس. يُفترض أنَّ جميع أشكال الجين الثّقافيّ هي أفكار والعكس صحيح. الفرضيّة التي تبدأ في ذهن واحد أو اثنين من العلماء، تنتشر حتَّى تصبح مشهورة بين حلقات العلماء، بينما نجد فرضيّة أخرى تموت بسرعة. الفرضيّات الأصلح ربَّما لها قوّة تنبّؤيّة أو بسبب البساطة أو لكونها تتكامل جيّدًا مع هيكل النَّظريّة.

وحيث إنَّ دارون كان يبحث عن بعض الأمثلة خارج التّطوّر البيولوجيّ لدعم فكرته بأنَّ مبادئ التّطوّر الدّارونيّة عبر الاختيار الطّبيعيّ قابلة للتّطبيق على نطاق أوسع قياسًا بتركيزها التّاريخيّ على الجينات وتأثيراتها على القدرات أو اللّياقات العضويّة، فالجين الثّقافيّ أو الـ(meme) يُفترض أن يكون وحدة التّطوّر الثّقافيّ

1- ريتشارد دوكنز، الجين الأنانيّ، ص 309.

التي «يُعاد إنتاجها» و«تُختار» في البيئة الطّبيعيّة بواسطة الذّهن الإنسانيّ.

يؤكّد علماء الاجتماع والتّطوّر أنَّ مفهوم الميم قاصر عن بناء نظريّة في التّطوّر الثّقافيّ للأسباب التّالية:

1. **الوحدات الثّقافية ليست مستنسخة:** المستنسخون (replicators) هم وحدات تقوم باستنساخ ذاتها. هؤلاء النّقّاد يرون أنّه لا توجد آليّة توضح كيفيّة استنساخ الأشكال الثّقافيّة. معظم الموادّ الثّقافيّة «يُعاد إنتاجها» بصورة متكرّرة وفاق ارتباط سببيّ بين جميع هذه المنتجات، لكن لا يُعاد إنتاجها بمعنى الاستنساخ من واحد إلى آخر. ولذلك، فهي ليست (meme)، ولو كانت نسخًا قريبة من بعضها.
2. **الوحدات الثّقافيّة لا تُشكّل عائلة أو سلالة واحدة:** إذا كان الاستنساخ الجينيّ يستطيع تعقّب نسخة جديدة من الجين لأب منفرد، فالأفكار نادرًا ما تُستنسخ من مصدر واحد لتسمح لنا بتعقّب سلالة معيَّنة بشكل واضح.
3. **الثّقافة لا يمكن تجزئتها إلى وحدات منفصلة:** الأفكار في علاقات منطقيّة مع بعضها، ومن المستحيل الاعتقاد بالنّظريّة النّسبيّة من دون فهمها. والمرء لا يستطيع فهمها من دون الإلمام بمعتقدات عدّة إضافيّة متّصلة بالفيزياء. الشّيء ذاته ينطبق على العقائد غير التّقنيّة؛ مثل التّطوّر الثّقافيّ.

فإذا كان التّطوّر الثّقافيّ قد حدث فعلًا طبقًا لشيء ما قريب النّسب من الآليّة الدّارونيّة، يستوقفنا سؤال: هل الدّارونيّة آليّة؟ الدّارونيّة هي عامل تعديل معيَّن للتّطور. لذلك، نحن لا نستطيع ببساطة مساواة الدّارونيّة مع التّطوّر. التّطوّر في معناه الأوسع يعني التّغيّر بمرور الزّمن، كما تغيّر الكون منذ الانفجار العظيم.

إنَّ مِنَ التّعريفات الأكثر شهرة للتّطوّر الدّارونيّ، والأكثر وضوحًا، هو الذي عرضه عالِم الوراثة من جامعة هارفرد «ريتشارد ليونتن» (Richard Lewontin)، في مقالة سُمِّيت «وحدة الاختيار»، نُشرت عام 1970م، وقد لاحظ مع عدد من التّطوّريّين الحاليّين أنَّ برنامج «دارون» يضمّ ثلاثة مبادئ:

- إنَّ لدى كلّ أفراد المجتمع تنوّعًا مورفولوجيًّا شكليًّا، سايكولوجيًّا وسلوكيًّا.
- إنَّ الأنواع لديها قدرات مختلفة للبقاء والتّكاثر في مختلف البيئات.
- ثمّة علاقة بين الآباء وذرّيّتهم في مساهمة كلّ منهم بمستقبل الأجيال (القدرات القابلة للتّوريث).

هـذه المبـادئ الثّلاثـة تُجسِّـد مبـدأ التّطـوّر عبـر الاختيـار الطّبيعـيّ، وفي ظلِّها سيباشـر النّـاس تغيّـرات تطوّريّة.

وبشكل بيانيّ: التّطوّر الدّارونيّ = التّباينات + القدرات المختلفة + الوراثة.

إنَّ أصعـب المشـكلات التـي واجهتهـا فكـرة التّطـوّر الثّقافيّ الدّارونـيّ كانـت الإجابة عـن سـؤال: مـا السّـمات الثّقافيّـة التـي هـي أصلـح مـن غيرهـا، وفـي أيّ بيئـة ثقافيّـة، ولمـاذا؟

ليـس مـن الملائـم مجـرَّد القـول: إنَّ السّـمات الأصلـح هـي تلـك التي «تبقى» بشـكل مختلـف؛ لأنَّ ذلـك يرقـى إلـى التّعريـف الدّائـريّ للعمليّـة. وقـد قـال «كارل بوبـر»: إنَّـه إذا كانـت الدّارونيّـة هـذه، عندئـذٍ سـوف لـن تكـون نظريّـة علميّـة، وإنَّمـا «برنامـج بحـث ميتافيزيقـيّ». بعبـارة أوضـح: مشـكلة مفهـوم «الجيـن الثّقافـيّ» أنَّـه مفهـوم مَـرِن لدرجـة لا يُعـرف مـا يُقصـد بالجيـن ومـا لا يُقصـد بـه. ويبقـى التّحـدِّي الأهـمّ أمـام أنصـار التّطـوّر الثّقافـيّ، هـو المجـيء بتوضيحـات أيكولوجيّـة وظيفيّـة لسـبب وجـود سـمات ثقافيّـة معيَّنـة أصلـح مـن غيرهـا فـي بيئـات ثقافيّـة محـدّدة[1].

الدّارونيّة النّفسيّة

تحـدَّث كثيـرون عـن أفـكار «دارون» فـي علـم النّفـس ونسـبوا الفضـل إليـه بكـون أفـكاره أحـد أسـباب تقـدّم علـم النّفـس، فقالـوا: إنَّ «دارون» جـاء بفكـرة عميقـة مفادهـا أنَّ التّطـوّر قـد أثَّـر علـى شـكل عقولنـا بالقـوَّة التـي أثَّـر فيهـا علـى شـكل أجسـادنا، فمنـذ أن تطـوَّر البشـر مـن السّـلف نفسـه الـذي تنتمي إليه قـرود الشّـامبنزي، اقتـرح «دارون» أنَّ بإمـكان المـرء أن يتعلَّـم أكثـر عـن طريـق مقارنـة الغرائز والعواطـف والتّصرّفات السّـلوكيّة البشـريّة بتلـك الموجـودة لـدى الحيوانـات أكثـر مِـنَ التّعلّـم عـن طريـق الاسـتخلاص مِنَ التّخميـن غيـر الموضوعـيّ، وقـال: «إنَّ مَـن يفهـم قـرود البابـون يسـتطيع أن يعمـل أشـياء أكثـر لعلـوم مـا وراء الطّبيعـة».

وقـال أنصـار ربـط علـم النّفـس بالتّطـوّر: إنَّ الانتقـاء الجنسـيّ فـي أحـد معانيـه هـو توسـيع نفسـيّ للانتقـاء الطّبيعـيّ، ولكـن بـدلًا مـن اكتسـاب ميـزة مِـنَ الصّفـات التـي تُعـزِّز قـدرة المـرء علـى البقـاء، فـإنَّ المـرء يكتسـب ميـزة مـن الميـزات التـي قـام الأزواج المحتملـون بتطويرهـا حتّـى يصبحـوا جذّابيـن.

1- ريتشارد دوكنز، الجين الأنانيّ، ص 309.

ولقد أوضح «دارون» أنَّ صفات تطبيق الاختيار وتأثير الحبّ والغيرة وتذوّق الجمال في الصّوت أو اللّون أو الشّكل تتعزَّز، بينما الانتقاء الطّبيعيّ أعمى؛ فالانتقاء الجنسيّ يهتمّ بالجمال، بالرَّغم من أنَّ طبيعة الجمال عادةً ما تكون في عين النّاظر. وأوضح هؤلاء الأنصار أنَّه مع دارون توسَّع علم النّفس الأكاديميّ بشكلٍ كبير، وعُزِّزَ بالأدوات المعقَّدة للمهارات المعرفيّة والسّبرانيّة (تحليل الأنظمة) والتّصوير الدّماغيّ، ولكن معظم هذه التّطوّرات عبارة عن توضيحات مشتقَّة من نموذج «التّطوّر العظيم لدى دارون». ويكمل دعاة الدّارونيّة النّفسيّة القول: إنَّ أساسيّات فهم الطّبيعة الإنسانيّة يمكن أن نجدها في دفاتر «دارون» التي كتبها قبل 175 سنة.

الإلحاد الجديد

الإلحاد الجديد، كما سبق وأشرنا في المقدّمة، ظاهرة بدأت إرهاصاتها في الثّمانينيّات مِنَ القرن الماضي في أميركا أوّلًا، ثُمَّ بعدها في أوروبّا، ونَمَا عودها بسرعة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001م. وقد ساهم في ذلك أرضيّة أوروبّيّة علمانيّة ومثاليّة داعمة للإلحاد لا تزال آثارها قائمة نتيجة للصّدام التّاريخيّ بين الكنيسة والعلم، والذي حُسم بهزيمة مُدوِّية للكنيسة التي نأت بنفسها عن مواجهة قضايا المجتمع، وتوجّه الغرب كلّه إلى العلمنة الشّاملة رفضًا لتدخّل الكنيسة، وليعتمد العلم إلهًا له بدلًا عن الله تعالى.

هذه الظّاهرة نراها اليوم أيضًا في مجتمعاتنا بين دوائر مُدَّعي العَلمنة واللّاهثين خلف النّموذج الغربيّ، وممَّن يعتقدون بسذاجة أنَّ التّقدُّم لا يتحقَّق إلَّا بالسَّير خلفَ الغرب، والتّعبُّد بطاعته الكاملة، والتّخلّي عن الهُويَّة التّاريخيَّة والعقديَّة، وطرح الدّين وفكرة الله جانبًا.

دُعاة هذا الإلحاد الجديد لا يَدَّعون فقط إنكار الإله؛ بل ويهاجمون الدَّاعين إلى إثبات وجوده. وقد ظهر مصطلح «الإلحاد الجديد» للمرَّة الأولى في مجلَّة شبكة المعلومات الأمريكيَّة الشّهيرة «وايرد» عام 2006م. وأشار البعض إلى أنَّ أركان الإلحاد الجديد: «دوكنز»، «هاريس»، «دينيت» و«كيتشنز» يُمثّلون «كنيسة جديدة» لا تقلّ تعصّبًا عن الكنيسة الكاثوليكيّة في مساءلة النّاس عن انتمائهم الدّينيّ. أمَّا تسميتهم بـ«الفرسان الأربعة» في الإعلام، فإشارة إلى فرسان رُؤيا يوحنَّا

الأربعة في الإنجيل من سفر الرّؤيا، كمؤشِّر على قدوم «الشّرّ العظيم»، كما وُصف الأربعة استخفافًا باسم «الملحدين البروتستانتيّين». تبع هؤلاء كُتّاب وإعلاميّون دَعَوْا إلى الإلحاد، وشَكّلوا ظاهرة خلّفت وراءها كثير من الرّدود والتّعليقات. وقد بلغ الأمر بالملحدين الجدد الدّعوة إلى قتل المسلمين خاصّة (حسبما قال هاريس)، وإلى استئصال التّديُّن واستنقاذ الأطفال من ذلك الوباء المدمِّر، حسب زعمهم. يستفيض «دوكنز» بالقول: «إذا كُنّا نعدّ مرضيّ الإيدز وجنون البقر مِنَ الأخطار التي تُهدِّد البشريّة؛ فالإيمان بإله هو أحد أكبر الشّرور في العالم؛ بل يفوق الجدريّ الذي تمّ القضاء عليه».

ترتكز العقيدة الإلحاديّة على نقطتين أساسيَّتين:

الأولى: أنَّ الطّبيعة فقط، بما فيها البشر والأفعال الصّادرة عنهم، هي الحقيقة، وأنَّ اللّه غير موجود.

الثانيّة: أنَّ العلم يمكن أن يُزوّدنا بمعرفة كاملة وموثوقة عن الواقع.

والشّعار العلميّ العريض الذي كانوا قد رفعوه هو أنَّ الكون وُجِدَ بالصّدفة والعشوائيّة، وأنَّ الدّاعِم الأكبر لمعتقدهم هذا كان نظريّتَيّ «دارون» و«هوكينغ»، القائلتين بأنَّ قوى الجاذبيّة تُحرِّك نفسها وتنظّم عَمَلَ الكون، وتاليًا لا حاجة لوجود منظِّم للكون.

ولكن أكبر النّكسات المُدوِيَة لهم كانت عندما عادَ أحد أهمّ رموز الإلحاد، وهو «أنطوني فلو»، عن إلحاده الذي استمرَّ خمسين عامًا، وأعلن إيمانه بالله نتيجة الاكتشاف العلميّ للحامض النّوويّ، بتعقيداته الخارقة، إذ كان سببًا رئيسًا وراء مراجعته لقناعاته الإلحاديّة، وبداية اعتقاده بضرورة وجود روح غير مادّيّة عالمة بكلِّ شيء، وبعقل خارق الذّكاء والتّصميم لا يصل إليه أيّ عقل بشريّ مهما بلغت عبقريَّته.

اكتشاف آخر سبَّب تحوّلًا انقلابيًا لدى «أنطوني فلو»، مفاده: أنَّ العقل ليس نتاجًا فقط لتفاعل أيونات الصّوديوم والكالسيوم، وأنَّ الإنسان ليس مُجبرًا على تفكير معيَّن أو سلوك معيَّن، وهو ما أفضى إلى تشكيك «فلو» في قانون الحتميّة الذي طالما احتفى به الإلحاديّون. لقد أفضت جميع تلك الملاحظات إلى تشكيك «فلو» في فرضيَّة الحتميّة الفيزيائيّة الحاكمة للكون، ومن ثَمَّ إعادة نظره في فرضيّة الإلحاد بشكلٍ عامّ.

هكـذا، نجـد كيـف كانـت الاكتشـافات العلميّـة نفسـها مِعْـوَلًا رئيسًـا فـي هـدم منظومـة الإلحـاد، وكيـف أنَّهـا وفَّـرت متَّسـعًا لإعـادة التّفكيـر فـي تلـك المنظومـة، فجعلـت واحـدًا مِـن أبـرز ملاحـدة العصـر الحديـث يُعلـن ويُجاهـر بكفـره بهـا.

يتميَّـز الملاحـدة الجُـدُد بأسـلوبٍ جديـد يختلـف عـن ديْـدن مَـن سـبقهم مـن منظِّري الإلحـاد السّـابقين، وهـو أسـلوب عدوانـيّ ومتطـرِّف، واسـتئصاليّ أيضًـا، وبتركيـز مثيـر للانتبـاه فـي اسـتهداف الدّيـن الإسـلاميّ أكثـر مِـن سـواه، وبالدّعـوة إلـى مناهضـة الأديان كلّهـا، وإثـارة الجـدل حولهـا، ويسـتعملون الوسـائل كافّـة لبـثِّ دعواهـم فـي وسـائل الإعـلام، وعبـر مؤسّسـات راعيـة تُمـوِّل نشـاطاتهم. ينسـب الإلحـاد الجديـد نفسـه إلـى «الإنسـانيّة العلمانيّـة» فـي مواجهـة الألوهيّـة، ويتغنّـى بتداخلـه معهـا، خصوصًـا فـي وصفه لأسـاليب التّربيـة علـى الإيمـان بكونهـا «تلقينًـا للأطفال وتخليـدًا للأيديولوجيّـات المبنيّة علـى الإيمـان بالخـوارق»، فيمـا يـردّ بعـض خصومـه ومنتقديـه بأنَّـه إلحـاد عسـكريّ الأسـلوب أو إلحـاد أصولـيّ آخـر.

اتَّسـم الإلحـاد الجديـد بنزعـة العـداء الشّـديد للدِّيـن، وبحصولـه علـى دعـم ماليٍّ وإعلاميّ واسـع ومثيـر للشّـبهة، وبالدّعـوة إلـى الهُويَّـة الإلحاديّـة والتّغاضـي عـن جرائـم الكيـان الصّهيونـيّ؛ بـل تسـويغ هـذه الجرائـم واعتمـاد العلـم مقياسًـا للحكـم علـى الأُمم؛ مـا أوصـل الملحديـن العـرب إلـى تبنِّـي حـقِّ إسـرائيل فـي الوجـود، واكتسـاح العالَـم العربـيّ المتخلِّـف علميًّـا! وقـد نفهـم جوانـب مهمَّـة مـن هـذه الدَّعـوات عندمـا نعلـم أنَّ معظـم دُعـاة موجـة الإلحـاد الجديـد هـم مـن أصـول يهوديّـة.

لقـد قـال العِلـم كلمتـه فـي وجـه دُعـاة الإلحـاد الجديـد عندمـا رفـض اعتمـاد الصّدفـة والعشـوائيّة أساسًـا لتفسـير نشـأة الكـون والنّظـام فيـه. وقـد دلَّـت المعـادلات الرّياضيّـة، حـول احتماليّـة نشـأة الكـون، أنَّهـا ضئيلـة إلـى درجـة لا يقـدر العقـل البشـريّ علـى تصوُّرهـا، وأنْ لا قيمـة ولا مـكان لهـا فـي علـم الرّياضيّـات. كمـا أنَّ الدِّقّـة فـي عمـل الكـون وثوابتـه السّـبعة ذات القِيَـم الدّقيقـة للغايـة تحمـل رسـالة الإعجـاز والعَظَمـة فـي الخَلـق مِـن صانـع الكـون إلـى عقـل الإنسـان وإدراكـه، وأنَّ علـى الإنسـان تلقِّـي الرّسـالة وفَهـم مضمونهـا بالعبـادة والعدالـة وتحقيـق مجتمـع الأمـان والسّـلام والوئـام بيـن البشـر.

الدّارونيّة أساس تيّار الإلحاد الجديد

إنَّ الفلاسفة الذين رفضوا وجود الله رفضوا في الحقيقة دور الكنيسة، لذلك كانت فلسفة التّنوير ثورة من أجلِ العقل والفكر، وهو تنوير لم ينطلق من رَحِم الإلحاد؛ بل كان حركة فكريَّة فلسفيّة تجديديّة، من أهمّ مدارسها ومنابعها المدرسة الدّيكارتيّة والمدرسة الكانطيّة، أو ما سُمِّي بالفلسفة المثاليّة الألمانيّة التي كان مؤسّسوها فلاسفة كبارًا تأثَّروا بـ«كانط» (Immanuel Kant)، منهم: «هيغل» (Georg Wilhelm Friedrich Hegel) و«آرثر شوبنهاور» (Arthur Schopenhauer). كان الذين يُديرون مسألة الإلحاد بشكل قصديّ بحاجة إلى برهان قويّ علميّ يتعلَّق بالوجود نفسه والموجودات التي فيه؛ لأجل تعزيز مصداقيّتهم ومشروعيّتهم، وهنا يأتي دور «دارون» في القرن التّاسع عشر، و«ستيفن هوكينغ» في الوقت الحاليّ.

من جهة أخرى، وفي الاستثمار الفكريّ والعقائديّ، كانت نظريّة «دارون» تُقدَّم على أنّها دِينٌ جديد للإلحاد، وقد قال فيلسوف العلوم والمتخصّص في البيولوجيا التّطوّري «مايكل روس»: «التّطوّر دين، هذه كانت حقيقة التّطوّر في بدايته، وهي حقيقة التّطوّر إلى اليوم». لكنَّ العلم التّجريبيّ الذي يعتمد على المشاهدة والتّجربة أكَّد أنَّ ما تفتقر إليه النّظريّة هو الدِّقّة والإجماع العلميّ لكي تكون حقيقيَّة ومثبتة بالعلم التّجريبيّ، فلم يشاهد أحد أيّ نوع يتطوَّر إلى نوع آخر حقيقيّ.

لقد ناقش «دارون» في كتابه «أصل الأنواع» نظريّته، وأورد عبارات «الانتقاء الطّبيعيّ» و«الصّراع من أجل البقاء بين الأجناس» و«التّزاوج المختار»، ورأى أنَّ أصل الحياة ظهر في صورة هلاميّة تُسمَّى بالجبلّة أو البروتوبلازم ونواة، وهي ما يُسمِّيه علماء الأحياء بالخليَّة. الخليَّة تطوَّرت ومرَّت بمراحل مِنَ القرد إلى الإنسان، وبدأت منذ حوالي أربعة إلى خمسة ملايين سنة، فوجدت بعض الأشكال الانتقاليّة بين الإنسان العصريّ وأسلافه. ووفاقًا لهذا السّيناريو الخياليّ، وضع دارون ودعاة التّطوّر قائمة بأربع فئات أساسيّة هي:

1 ـ القرد الجنوبيّ.
2 ـ الإنسان القادر على استخدام الأدوات.
3 ـ الإنسان منتصب القامة.
4 ـ الإنسان العاقل[1].

1- Dr. Ghaly, https://www.drghaly.com › category.

وأطلقوا على من يزعمون أنّهم الأسلاف الأوائل لكلٍّ مِن الإنسان والقرد اسم القرد الأفريقيّ الجنوبيّ. وزعموا، أيضًا، أنَّ الحياة قد بدأت بخليَّة تكوَّنت بمحض الصّدفة! وقالوا: إنّه منذ أربعة بلايين سنة، خضعت أعداد متنوّعة من المركّبات الكيميائيّة التي لا حياة فيها إلى تفاعل حدث في جوِّ الأرض البدائيّ، وفيه حثَّت الصّواعق والضّغط هذه المركبات على تكوين أوَّل خليَّة حيَّة.

وهكذا، نسف تفسير «دارون» الغاية من وجود الله ومعه فكرة الخَلق؛ إذ جعل هذا التّفسير الإنسان مماثلًا تمامًا للحيوانات، وخَلَق تيّارًا فكريًّا ماديًّا فاقَمَ الصّراع بين العلم والدّين، وكما يقول «برتراند راسل» (Bertrand Russell): «لقد سدَّد مذهب دارون لعلم اللّاهوت ضربة قاسية تمامًا، كما فعل «كوبرنيكوس» (Nicolaus Copernicus) في عالَم الفلك»[1].

وفي مرحلة ثانية، طبَّق «دارون» هذه النّظريّة على الدّين، وقال: «إنَّ الدّين نشأ أوَّلًا على الإيمان بقوى روحيّة غير مرئيّة، ثُمَّ الإيمان بقوى سحريّة، ثُمَّ انتقل إلى الوثنيّة أو تعدُّد الآلهة، حتَّى وصل إلى غايته في التّوحيد! ورفض ما جاء في العهد القديم، مثل برج بابل وظهور قوس قزح بعد الطّوفان». وباختصار، قال: إنَّ «كلّ شيء في الطّبيعة هو نتيجة للنّواميس الثّابتة»[2].

وكان ظهور هذه النّظريّة سببًا في انتشار الإلحاد وعبادة الطّبيعة وإنكار الكتب الدّينيّة والوحي والأنبياء عمومًا، ونفي وجود الله ووجود آدم وحواء. ونتج عن هذه النّظريّة سيطرة الأفكار المادّيّة على عقول المفكّرين، ومناداتهم بخضوع الإنسان للمادَّة وعبادة الطّبيعة التي قال عنها «داروين»: «الطّبيعة تخلق كلّ شيء، ولا حدَّ لقدرتها على الخلق».

ونتيجة لذلك، ظهرت الفاشيّة النّازيّة والشّيوعيّة الماركسيّة، فغرق العالم في بحور مِنَ الدّم. فقد تأثَّر «هتلر» بأقوال «دارون» عن «الانتقاء الطّبيعيّ» و«الصّراع من أجل البقاء بين الأجناس» و«التّزاوج المختار»، والتي تكرَّرت عشرات المرّات في كتابه «أصل الأنواع»، واستوحى منها أفكار كتابه «كفاحي» الذي ركَّز على مبدأ البقاء والنّصر للأصلح، وقال: «سوف يصل التّاريخ إلى أوجه في إمبراطوريّة ألفيّة جديدة تتَّسم بعظمة لا مثيل لها، وتستند إلى تسلسل جديد للأجناس تُقرِّره الطّبيعة ذاتها».

1- Dr. Ghaly, https://www.drghaly.com › category.

2- Ibid.

ويصف المؤرّخ «هيكمان» (Hickman) تأثير الدّاروينيّة على «هتلر» (Adolf Hitler) وفاق الآتي: «لقد كان هتلر مؤمنًا راسخًا بالتّطوّر ومبشّرًا به. وأيًّا كانت عقده النّفسيّة الأعمق والأعوص، فإنَّ من المؤكّد أنّ فكرة الصّراع كانت مهمَّة بالنّسبة إليه؛ لأنَّ كتابه «كفاحي» يُبيِّن بوضوح عددًا من الأفكار التّطوّرية، خصوصًا تلك التي تؤكّد على الصّراع والبقاء للأصلح، وإبادة الضّعفاء لإنتاج مجتمع أفضل»[1].

قرأ «كارل ماركس» (1818ـ1883م) (Karl Marx) ورفيقه «إنجلز» (Friedrich Engels) ـ مؤسِّسا الشّيوعيّة ـ كتاب «أصل الأنواع» بمجرَّد ظهوره، وانبهرا بالأسلوب المادِّيّ الجدليّ الذي اتّبعه، كما تأثَّرا أيضًا بفكر «هيغل». وكتب «ماركس» في بيان الحزب الشّيوعيّ (1848م) استكمالًا وتوضيحًا للماركسيّة: إنَّ هذا المؤلّف «يضع الخطوط العريضة لتصوّر جديد للعالم، هو المادِّيّة المتماسكة، وهو تصوّر يضمّ أيضًا مجال الحياة الاجتماعيّة والجدل، كونه أكثر نظريّات التّطوّر شمولًا وعمقًا، ونظريّة صراع الطّبقات، ونظريّة الدّور الثّوريّ التّاريخيّ العالميّ للبروليتاريا (الطّبقة العمّاليّة) ـ خالقة المجتمع الشّيوعيّ الجديد»[2].

وقال «كارل ماركس»: «إنَّ الدّين هو تغرّب عن الإنسان بالهروب إلى ما يُسمّى إله»، وأيضًا: «إنَّه أفيون الشّعوب... مَن يُحدّثني عن الله يبغي أن يسلبني مالي وحياتي»[3].

استمرَّ «دارون» في حياته باتّخاذ دور قياديّ في أعمال الرَّعِيّة في الكنيسة المحليّة، ولكن ابتداءً من عام 1849م، بدأ بالمشي في أيّام الأحد في الوقت الذي تقصد عائلته فيه الكنيسة. وعلى الرّغم من تحفّظه على آرائه الدّينيّة، فقد ردَّ في عام 1879م بأنَّه «لم يكن ملحدًا أبدًا، بمعنى إنكار وجود إله»، وأنَّ «اللّاأدريّة هو الوصف الأكثر صحّة لحالتي الذّهنيّة».

وبالرَّغم من كلّ ما سبق، إلّا أنَّ نظريّة التّطوّر وما جرى عليها من تطوّر هي أيضًا لم تستطع أن تُقدِّم دليلًا علميًّا مؤكّدًا على صحّتها؛ بل ولم يستطع أحد من العلماء الذين ينادون بها أن يبرهنوا صحّتها؛ لأنَّها بُنِيَت أصلًا على الفلسفة والملاحظات

1- Dr. Ghaly, https://www.drghaly.com › category.

2- Ibid.

3- Ibid.

الشّخصيّة وقوَّة المخيّلة، وليس على التّجربة العلميّة وإنّما على تكنولوجيا بدائيّة جدًّا. كذلك لم يكن أبان ظهورها مجالات علميّة؛ مثل علم الوراثة وعلم الكيمياء الحيويّة.

كما كان اكتشاف عالم النّبات النّمساويّ «غريغور مندل» لقوانين الوراثة، سنة 1865م، والتي ولد على أثرها علم الوراثة في القرن العشرين، مِن أقوى الضّربات التي وُجّهت لها. وقد رفضها أيضًا معظم العلماء في نهاية القرن العشرين، وكتبت ضِدَّها مئات الكتب التي تؤكّد عدم ثباتها أمام الدّليل العلميّ، ويُرفض تدريسها حاليًّا في أكثر من 42 ولاية أمريكيّة، وقد حلَّت محلّها نظريّة جديدة هي نظريّة «التّصميم الذّكيّ» (Intelligent Design) التي تقول: إنَّ الكون خلقه عقل ذكيّ جدًّا (الله).

لقد ظلَّ الوجود الأوَّليّ مأزقًا يخنق نظريّة «داروِن»، وكذلك نظريّة «هوكينغ». وقد حاول بعضهم التّملُّص من ذلك بالقول: إنَّ العلم لا يُجيب عن أسئلة البدايات، لأنَّ ذلك مِن عمل الفلسفة. ولكن، ولإصرار معارضيهم على طرح هذا السّؤال، كان على منظِّري الإلحاد إيجاد فكرة والتّرويج لها، حتّى تكون بمثابة الحقيقة، على الرّغم من أنَّها فكرة قابلة للسّخرية: «إنَّ كلّ شيء جاء من اللّاشيء».

وبالرّغم من عبثيّة هذه الفكرة وسخفها منطقيًّا وعلميًّا؛ إذ لا يمكن للّاشيء أن يتحوَّل ذاتيًّا إلى شيء، فقد بذل الملحدون الجُدُد، وعلى رأسهم «دوكينز»، مجهودًا كبيرًا لتقديم تعريفات علميّة عميقة لهذا «اللّاشيء»، وإعطاء قصَّة للوجود تنفي وجود مُوجِد له، وتصله باللّاشيء وبالصّدفة العمياء، أو ما سمَّاه بصانع السّاعات الأعمى.

لقد كانت خلاصة نظريّة «دوكينز» والملاحدة الجُدُد في نشوء الكون، وفي تطوّر الكائنات كلّها: أنَّ العدم أو اللّاشيء انفجر فجأة، وشكّل كونًا منتظمًا معقَّدًا متناسقًا في سيرورة منظّمة، ونفس العدم شَكّل فجأة كوكبًا، وبمرور الزّمن شكّل ماءً تشكّلت فيه بداية حياة (خليَّة أو بكتيريا)، ثُمَّ بمزيد الزّمن وعبر مصادفات عشوائيّة عمياء تطوَّر ذلك كلّه إلى مخلوقات منسقّة منظّمة فيها عائلات ونوعيّات يصعب حصرها وتحديد مقدار جماليّتها وفرادتها، من بينها الإنسان بلغاته الكثيرة وحضاراته العديدة؛ بل إنَّ أحد الأسباب التي تجعل البعض مدافعًا عن نظريّة التّطوّر هو التّهرب من الخلق المباشر للكائنات والخالق لكلّ شيء.

لذلك، نرى المكابرة من أنصار نظريّة التّطوّر عندما يتعلَّق الأمر بأصل الحياة، فيدَّعون أنَّه لا يوجد سوى احتمالَين، هما: الخلق أو النّشوء التّلقائيّ، ولا يوجد طريق ثالث. والنّشوء التّلقائيّ جرى دحضه قبل مئة سنة، ولكن هذا يقودنا إلى استنتاج واحد آخر فقط، وهو الخلق الخارق للطّبيعة، ولا يمكننا قبول ذلك لأسباب وأُسس فلسفيّة؛ ولذلك فإنَّنا اخترنا أن نعتقد المستحيل، وهو أنَّ الحياة نشأت تلقائيًّا عن طريق الصّدفة.

أمَّا القول بأنَّ طروحات «هوكينغ» في الفيزياء هي نفسها براهين على طردِ فكرة الله من مسألة خَلق الكون بشكلٍ نهائيّ (وهو أيضًا مجرَّد بناء وهميّ لأنَّه قائم على التّوهُّم بأنْ يكون كلّ شيء تَشكّل بقوَّة الجاذبيّة التي لم يخبرونا من أين جاءت)، فهو لا يعفي من الإجابة الصّعبة عن أسئلة البدايات لدى كلٍّ مِن «دارون» و«هوكينغ»؛ بل إنّ كلّ ما يُقال من ردود للملحدين هو واهن وضعيف، لا يملك له «هوكينغ» ولا «دارون» الحجَّة العلميّة.

إنَّ مسألة الوجود الأوَّليّ لا تزال مأزقًا لدى هؤلاء؛ لأنَّ السّؤال الذي يُطرح منطقيًّا هو ضرورة وجود مسبِّب لكلِّ سبب، ووجود مُبدئ لكلِّ بداية، ولزوم سؤال البدايات هو وجود أصل لظهور المخلوقات والكون نفسه. لقد جهد «هوكينغ» ليكون «دارون» جديدًا في عالم الفيزياء، ولكنَّه لم يُفلح بعد أنْ رفضت لجنة نوبل للفيزياء منحه الجائزة لغياب الأدلَّة على نظريّته، ولعدم القدرة على التّحقّق من صحَّتها تجريبيًّا.

ينتقد العديد نظريّة التّطوّر لتعارضها مع خلق الإنسان الموجودة في جميع الأديان، وكونها تنفي تدخّل الله مباشرة بخَلق الإنسان، وتُوكِل ذلك إلى الاصطفاء الطّبيعيّ والطّفرات العشوائيّة، وكون الملحدين واللّادينيّين يستخدمونها للطّعن في صحّة الأديان، وللبرهنة على أنَّ الله غير موجود.

ولقد حفلت ساحة البحث العلميّ بالعديد من العلماء والباحثين الذين رفضوا النظريّة ومن زوايا متنوّعة، والمقام لا يتّسع لعرض شهاداتهم ضِدَّ الدّارونيّة، ولكن على سبيل المثال لا الحصر نستعرض واحدة من أهمّها، وهي حجَّة التّصميم الذّكيّ التي يدعمها «معهد ديسكفري الأميركيّ»، والتي تقول بأنَّ بعض الميزات في الكون والكائنات الحيَّة لا يُمكن تفسيرها إلَّا بمُسبِّب ذكيّ، وأنَّ الاصطفاء الطّبيعيّ يفشل في فعل ذلك. فمثلًا، التّركيب المعقَّد للعين استُخدِم دليلًا في

تدعيم نظريّة أنَّ العين صُمِّمت بواسطة خالق، فقيل: إنَّه من غير الوارد أن تكون قد تطوَّرت بواسطة الاصطفاء الطّبيعيّ، في حين أطلق عليها، سنة 1802م، الفيلسوف المسيحيّ الإنجليزيّ «ويليام بالي» (William S. Paley): «معجزة تصميم». وكذلك «دارون» نفسه، كتب في كتابه «أصل الأنواع»: «أنَّ تطوّر العين بواسطة الاصطفاء الطّبيعيّ لأوَّل وهلة يبدو سخيفًا»، لكنَّه استطرد بالقول أنَّه «بالرَّغم من صعوبة تخيّل الفكرة إلَّا أنَّها معقولة جدًّا»[1].

الخلاصة

تبيَّن لنا ـ وكما أسلفنا ـ أنَّ نظريّة التّطوّر ليست قانونًا ولا تحمل شرعيَّة القانون العلميّ، ولا تجد أجوبة لنتائج الأحافير والانفجار الكمبريّ، ولم يشاهد أحد أيّ نوع يتطوَّر إلى نوع آخر حقيقيّ وبالوقائع الدّامغة.

ولقد تعمَّد بعضُ الملحدين الجدد الاستثمار في نظريّة التّطوّر بنصب خدع كثيرة في طيّاتها؛ فعلماء التّطوّر درسوا ما بين الأنواع من علاقات مع أجدادها في الأحفوريّات، ولكن إسقاط ذلك على التّطوّر كلّه من نوع لآخر خدعة.

وبعض علماء التّطوّر نظروا في التّشابه بين القرد والإنسان، ضمن حلقات التّشابه بين المخلوقات، فأسقطوا ذلك بالقول: إنَّ الإنسان والقرد يشتركان في جدٍّ واحد، وهذه خدعة أيضًا فالقرد هو نفسه منذ آلاف السّنين.

ولكن ربط النّظريّة بالشّموليّة من أحاديّ خليّة إلى الكائنات كافّة، ومنها الإنسان المنحدر من قرد، وربطها بالإلحاد وإنكار الخالق لهو خدعة أعظم وافتراء مقصود سلفًا وعنادًا.

يبقى السّؤال التّالي من دون جواب: من أين جاء الجزء الأدنى في التّكوين؟ وكيف نشأ؟ ومَن أين كان له أن ينمو؟ ومَن أوجد له الوعاء الذي وُجد فيه؟ ومَن جعل له الأرض تحديدًا ووفَّر له المناخ المناسب وملايين الظّروف المناسبة؟ فالمشتري أو عطارد لا يصلحان للحياة، والمسافة مِنَ الشّمس لو كانت أدنى لكانت الأرض نارًا محرقة، ولو كانت أكبر لكان جليدًا قاتلًا، كما هي الحال في الكواكب الأقرب والأبعد عن الشّمس.

ثُم، لماذا هذا النّجم بالذّات من بين جميع النّجوم الموجودة بالمليارات في

1- تشارلز دارون، أصل الأنواع، ص 300.

هذه المجرَّة؟ ومَنْ أَوْجَدَ كلّ شيء تفصيلًا؟ ومَنْ نقل الخلايا مِن حالة أحاديّة إلى ما بعدها؟ ومَنْ عدَّل التّسلسل الجينيّ الصّارم؟ مَنْ قام بتحريك الجزيئات النّوويّة، وحدَّد نوع التّعديل ليكون الحمام حمامًا، ولتكون الزّرافة زرافة، ولتكون السّمكة سمكة، ولكلّ هذه الكائنات اليوم التي يجهل الانسان أعدادها وأنواعها؟

ثُم، مَنْ قام بتلك العمليّة الكبرى من تغيير كُلِّيّ للمناخ والأرض، والقضاء على مخلوقات عظيمة الحجم والقوّة، وعلى كلّ ما يشمل وجودها من أشجار عملاقة وغيرها بشكل تامّ، وإدخال الكوكب كلّه في حالة من الجليد المستمرّ، ثمّ تجديده بحياة مختلفة تمامًا؟

فنظريّة التّطوّر تحمل في ذاتها دليل بطلانها، إذ لم يستطع أحد مطلقًا أن يدَّعي أو يقول: إنَّ الموادّ غير الحيَّة يمكن أن تجتمع معًا لتكون حياة، فهذا غير علميّ ولم تثبته أيّ تجربه أو ملاحظة على الإطلاق؛ لأنَّ الحياة لا تُولَد إلَّا مِن حياة، وتتكوَّن كلّ خليَّة حيَّة بالنّسخ مِن خليَّة أخرى، ولم ينجح أيّ شخص أبدًا في العالَم في تكوين خليَّة حيَّة بالجمع بين الموادّ غير الحيَّة، ويقرّ بذلك أيضًا علماء التّطوّر أنفسهم.

وأهل الرّياضيّات أدلوا بدلوهم ورفضوا تفسير النّظام الإعجازيّ للكون وعلى الأرض بمنطق الاحتمالات، ويدعمهم في ذلك مضمون القانون الثّاني للدّيناميكا الحراريّة الذي ينسف فكرة التّناظم الذّاتيّ وصناعة العشوائيّة للنّظام من دون تدخّل خارجيّ يُدير ويُنظّم ويُرشد عمل الكون، فالقول بالصّدفة حلّ لا علاقة له بالعلم ولا بالمنطق.

لم تستطع نظريّة التّطوّر أن تُقدّم دليلًا علميًّا مؤكّدًا على صحّتها؛ بل ولم يستطع أحد من أنصارها أن يُبرهن على صحَّتها؛ لأنَّها بُنيت أصلًا على الملاحظات الشّخصيّة وقوَّة المخيّلة، لا على التّجربة العلميّة؛ بل حتّى على تكنولوجيا بدائيّة جدًّا، في عصر لم تكن فيه مجالات علميّة مثل علم الوراثة وعلم الكيمياء الحيويّة موجودة.

لقد كان لنظريّة التّطوّر تداعيات كبيرة، وأحيانًا مفجعة على البشريّة للأسف؛ إذ وفّر ظاهرها المستند العلميّ لزعم إنكار الخالق من قبل الفلسفات المادِّيّة والإلحاديّة، وقد تلقَّف أرباب هذه الفلسفات افتراضاتها وترجموها في كتبهم العقائديّة الموجَّهة التي تناولت ميادين الاجتماع والاقتصاد وعلم النّفس والثّقافة

والسّياسة! وخصوصًا مع صدور كتاب داروين الثّاني (أصل الإنسان) عام 1871م، والذي كان أشدّ غلوًّا من سابقه؛ وذلك لتعرّضه بصورة مباشرة إلى (افتراضات) تطوّر الإنسان، والأهمّ: تصنيف البشر حسب الأجناس؛ فجعل منها ما هو منحطّ الجنس مثل العرب والزّنوج والسّكّان الأصليّين لقارّات أفريقيا وأستراليا والأمريكيَّتَين (الهنود الحمر)، وذلك في مقابل اليهود والإنسان الأوروبّيّ الأبيض. يقول فيه دارون مثلًا: «في المستقبل القريب، ستقوم الأجناس البشريّة الأكثر تقدّمًا بإبادة الأجناس البدائيّة والحلول بدلًا عنها، سينتهي القردة البشريّون إلى الأبد. هذا ممّا لا شكّ فيه سيُحدث صراعًا بين الأجناس المتطوّرة وبعض القردة العليا، والذين يُعبّر عنهم حاليًّا بالسُّود وسُكّان أستراليا الحاليّين والغوريلّات»[1].

إنَّ ما يدعونا إلى الاستغراب هذا التّكالب على مضمون النّظريّة واستخدام أفكارها للحصول على مشروعيّة لبعض التّطبيقات في السّياسة، وتسويغ طروحات العنصريّة والتّمايز العرقيّ بين عرق وآخر أو فكرة وأخرى. فيما تبيَّن لنا، مع خلاصة هذا البحث، أنَّ النّظريّة تفتقد القوّة والمشروعيّة لإثبات ذاتها والصّمود أمام الوقائع المشكّكة العلميّة في مصداقيَّتها، وهذا ما يُعرِّض مصداقيّة التّيّارات الفكريّة كافّة التي بُنيت عليها إلى التّصدع والبقاء من دون سقف علميّ ثابت متين، ونعني بها تيّار الإلحاد الجديد الذي أعلن «فرسانه الأربعة»: «دوكينز»، «هاريس»، «هيتشنز» و«دينيت»، أنَّ نظريّة داروين «أخرجت فكرة الإله مِن العلوم الطّبيعيّة»، وهي الأساس العلميّ لتيّار الإلحاد الذي يدعون إليه. وقد أشرنا إلى أنَّهم حشروا العِلم في دعاواهم، وقوّلوا العلم ما لم يقل، من دون أن ننسى أنَّهم يتعمَّدون التّغطية على ممارسات الكيان الصّهيونيّ ويسوّغونها بكلّ صلافة، ما يزيد في الشّبهات حول مجمل مشروع الإلحاد الجديد ويضعه في دائرة التّهمة الصّريحة؛ كونه حلقة في المشروع الصّهيونيّ لا تنفصل عنه في الشّدائد خصوصًا.

في المحصّلة، تبقى نظريّة التّطوّر الدّاروينيّة إحدى أبرز النّظريات البيولوجيّة في العصر الحديث، وإلى يومنا هذا ما تزال المؤسّسات العلميّة والبحثيّة تُركّز عليها وعلى تطبيقاتها في العلوم الطّبيعيّة، بالرّغم ممّا يكتنفها من كثير من الأخطاء أو الأجزاء النّاقصة، وممَّا تبعها من انتقادات أو محاولات لاستكمالها والبناء عليها، مع وجود تيّار أُمميّ قد أوقف تبنِّي النّظريّة ومنع تدريسها في المدارس والجامعات.

1- Charles Darwin, The Descent of Man, p. 178.

مع الأخذ بالحسبان أنَّ قسمًا منها لا يدعو إلى الإلحاد حتمًا، لكنَّ الإسقاطات المذكورة أعلاه قلَّصت من مصداقيّتها وزادت الشّبهة في مقاصد مستثمريها، وفيها حتمًا .

إنَّ الجدل العلميّ البحت حول صحّة قسم منها وصلاحيّته أو مقبوليّته لا يعنينا مباشرة؛ بل نترك مسار العلم الحديث المجرَّد مِن دون أفكار مسبقة ليكمل مساره وليقرّر بكلمة الفصل ما هو مقبول منها، وما هو مرفوض. ولكن ما يعنينا، هو محاولات العقائد والأفكار تسويغ صحّتها وإضفاء السّمَة العلميّة عليها لطرد فكرة الإله والخالِق مِن عالَم البيولوجيا، والمتآمر مع المرتكز الآخر في مجال الفيزياء، والذي ذهب به «هوكينغ» وأنصاره بدعوى طرد الإله والخالِق من عالَم الفيزياء والكون والوجود، وهو ما تراجع عنه قبل وفاته 2018م.

يبقى أنْ نقول وبكلّ تأكيد: إنَّ الوقائع والأحافير أدلَّة مادّيّة حاسمة، أنهت، وبالضّربة القاضية، المشروعيّة العلميّة للنّظريّة والإسقاطات والنّتائج الإلحاديّة لها. والنّظريّة تبقى نظريّة افتراضيّة، لا حقيقة علميّة دامغة مثل سائر القوانين العلميّة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع باللغة العربيّة

- الجنابـيّ، طالـب، نظريّـة التّطـوّر خرافـة باسـم العلـم، ط1، بيـروت، مكتبـة دار الأضـواء، 2015م.
- دارون، تشـارلز، أصـل الأنـواع، ترجمـة مجـدي محمـود المليجي، ط1، القاهـرة، المجلـس الأعلـى للثقافـة، 2004م.
- دنتـون، مايـكل، التّطـوّر نظريّـة فـي أزمـة، ط1، لنـدن، مركـز براهيـن للأبحـاث، 2017م.
- دوكنـز، ريتشـارد، الجيـن الأنانـيّ، ترجمـة تانيا ناجيـا، ط1، بيروت، دار السّـاقي، 2009م.
- محمّـد علي، أورخـان، تهافـت نظريّـة داروين فـي التّطـوّر أمـام العلـم الحديـث، ط1، بيـروت، طبعـة مؤسّسـة الرّسـالة، 1997م.
- المعجـم الموحّـد لمصطلحـات علـم الأحيـاء، سلسـلة المعاجـم الموحّـدة رقـم (8) (بالعربيّـة والإنجليزيّـة والفرنسـيّة)، تونـس، المنظمـة العربيّـة للتربية والثقافة والعلـوم مكتـب تنسـيق التّعريـب، 1993م.

المصادر والمراجع باللغة الأجنبيّة

- Charles Darwin, The Descent of Man, 2nd edition, New York, A L. Burt Co., 1874.
- Durrett R., Schmidt D., Waiting for two mutations: with applications to regulatory sequence evolution and the limits of Darwinian evolution, Genetics, 2008, No 180(3):1501.
- H. Yahya, The Evolution Deceit, The Scientific Collapse of Darwinism and Its Ideological Background, https://www.amazon.com, 1999.
- Weiner, J.S., The Piltdown Forgery، Oxford University Press, (29-1-2004).

المصادر والمراجع الإلكترونيّة

- الأدلّة العلميّة للرّدّ على نظريّة التّطوّر صور وروابط علميّة - منتديات الهدى، http://quran-ayat.com › threads.
- اصطياد سمكة سيلاكانث في 21/1/ 2003، وثيقة 10 /7/ 2017م على موقع واي باك مشين.
- مازن الشريف، الإلحاد بين الحقيقة والوهم من دارون إلى هوكينغ»، https://www.mazencherif.com.
- جوزيف كون، جامعة بايلور الطّبيّة: تشريح الدّاروينية، نسخة تمّوز، 2015م، موقع واي باك مشين.
- الكائنات متعدّدة الخلايا وحيدة والخليّة وحيدة، https://microbiologynote.com.
- برايان و ديبورا تارلزوورث، ملخّص كتاب التّطوّر، https://engzketab.com.
- نظريّة التّطوّر، تمام طعمة، موقع «موضوع» العلميّ، 2023/6/26م.
- Dr Ghaly, https://www.drghaly.com › category.